الكتاب الثانى

تراجـــــم غربية

obeikandl.com

obeikandl.com

بتهوفن

اليوم ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ ، يحتفل العالم بمرور مائة عام على وفاة بتهوفن ، اجلالا لتلك الألحان القدسية التى أورثها اياه هذا النابغة الشقى ، والتى ما تزال برغم ما أحدث كبار رجال الموسيقى آيات خالدة فى عالم النغم . فما يزال لحن الريف وألحان بتهوفن التسعة الأخرى وسائر أناشيده الغنائية تموج فى جو الوجود فتزيده بالحياة نعمة ، وتشدو فى أغوار نفوس عارفيها والمعجبين بها كلما أعوزهم اللحن العذب ليرفع من هممهم وليقوى عزائمهم . وما يزال اسم بتهوفن ولن يزال مقترنا بكل لحن من هذه الألحان ، بل بكل نغمة من نغماتها . وذكر العالم اليوم له لمرور مائة عام على وفاته ليس الا أداء لدين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالا وفضلا وقوة .

يذكر العالم كله اليوم بتهوفن فيذكر ذلك الألمانى المولد ، الفلمنكى الأصل ، المتقارب أجزاء الجسم فى قصر يكاد يجعله قزما ، الحاد النظرة ، العبوس ، المتجهم للحياة بعد ما تجهمت الحياة له ، فأورثته المرض وانتهت به الى الصمم ، الجاعل مع ذلك من الألم سبيل المسرة ، المفنى نفسه فى سبيل فنه ، المؤمن برسالته وبقوته . يذكر العالم هذا الرجل الذى لم يجد فى غير العمل سبيلا للسعادة ، أو بالأحرى لحسن احتمال الشقاء ، والذى توفر على عمله فى الموسيقى توفرا جعله ينتج هذه الثروة الفنية ، والذى لم يعرف

غير الموسيقى ولم يؤمن بشيء ايمانه بها آن كانت أعصابه أوتارا تهتز بالنغم لكل مافى الحياة .

فقد كان كل مافى الحياة عنده نغما . كان الجمال نغما والعواطف نغما والأفكار نغما والنور والظلمة والحزن والمسرة والزهر والشجر والسحاب والجبل وكل مافى الطبيعة ومافى الحياة أنغاما تشدو بها أوتار هـذه النفس العصبية الحساسة الشديدة التأثر بكل ما يلامسها .

بهذه الأنغام وبما تعبر عنه من جليل المعانى وبذكرى واضعها يحتفل العالم اذن اليوم .

وعجيب أن كانت حيـاة واضع هذه الأنغام السماوية نشازا كلها . فلم ينشأ بتهوفن نشأة غيره ولم تتسق حياته مع نبوغه ، ولم يذق من الهناء ما يذوقه أمثاله . بل كان ، وهو على حـد قوله « باكوس الذى يستصفى للانسانية الرحيق العذب ويجلى على الناس أقدس مافى الروح من جلال » ، معذبا فى نشأته ، معذبا جل حياته ، معذبا كذلك فى موته . ولعل ما متعت به ذكراه بعد ما استراح من عناء الحياة ونشازها الدائم معه ، قد أفاء على روحه من الطمأنينة ما لم يسترح اليه يوما طوال عيشه .

* * *

ولد لدفج فان بتهوفن بمدينـة بون على مقربة من كولونيا فى ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٠ . وكان أبوه مغنيا سكيرا ، وكانت أمه خادما وابنة طباخ وأرمل فراش . وهذه بداية فى الحياة لا تبشر بخير ولا بنعمة . بل هى نذير صراع للوجود قاس قتال . ولم يمهله أبوه الى أكثر من الرابعة من عمره حتى تبين منه ميلا للموسيقى ،

فأراد أن يستغله بعرضه على الناس وحبسه ومعه كمنجا صغيرة ، وأرهقه بالعمل حتى كاد يكره اليه فنا خلق له . لكن كسب الأب كان تافها . فكان لابد للطفل أن يجنى من عمله عيشه . فما بلغ الحادية عشرة حتى كان عازفا فى اركسترا أحد المسارح . وفقد أمه وهو فى السابعة عشرة من عمره . فحزن لفقدها أشد الحزن أن ألقى ذلك عليه أعباء العناية بأمر أسرته وتربية أخويه بسبب ما انحط من قوى أبيه .

وفى نوفمبر سنة ١٧٩٢ ارتحل الموسيقى الى فينا عاصمة ألمانيا الموسيقية على أثر موت أبيه . وكان يومئذ كما كان طوال حياته ميالا للعزلة محبا للعمل حبا جما . وكان لذلك قد جعل من البيانة [1] خير أصدقائه . فاليها كان يبث شجنه حين اضطر لهجرة دار أهله وقد جعلتها عربدة أبيه جحيما ، واياها كان يستودع الأفكار الطريفة التى يفيض بها قلبه ، وعليها كان يرتجل هذه الأفكار ارتجالا ، ومعها كان يتناجى بما يجول فى نفسه من خلجات وما يجيش به صدره من عواطف ، وبها كان يعبر للنساء اللواتى أحب عما يغمر قلبه من هيام وما يحز فيه من غيرة . بل لقد كان يتحدث بها الى أصدقائه . ولم يكن أكثر منها بلاغة للعبارة عما فى نفسه . فقدت سيدة من معارفه ولدها وجزعت لفقده أى جزع ، فلما ذهب بتهوفن يواسيها أمسك بيدها ووضعها على قلبه وقال لها : « ان ما أشعر به هنا لاسبيل الى بيانه . لكن البيانة ستقوله عنى » ثم جلس الى الآلة الموسيقية وارتجل قطعة يحكى فى صدرها ألمه ، ثم كانت للسيدة نعم العزاء . وكذلك كانت البيانة

(١) البيانو على نحت الأستاذ مصطفى صادق الرافعى .

صديقته كما كانت موضع قوته فى الموسيقى وسلطانه فى الارتجال . بلغ من السلطان عليها حتى قال عنه موزار — الذى ملأت ألحانه آذان ذلك العصر وما تزال الى اليوم من مفاخر الموسيقى — وقد سمعه وهو فى السابعة عشرة من عمره يرتجل وحده فى غرفة مجاورة للغرفة التى كان فيها موزار وجماعة من أصدقائه : « تنبهوا الى هذا الشاب فسيكون موضع حديث الناس يوما من الأيام » .

ذهب الى فينا على أثر وفاة أبيه بدعوة من أعضاده وفى مقدمتهم الكونت دوالشتين . وكان أكبر همه من ذهابه اليها أن يدرس على هايدن أكبر المؤلفين الموسيقيين الألمان يومئذ . لكن هايدن كان مشغولا بتواليفه جد الاشتغال فلم يجد الشاب من وقته ما يفيده . فتركه بل قاطعه وعمد ليدرس على البرختبرجيه . وكانت أخلاق هذا الأستاذ على علمه يشوبها كثير من الغرور والجفوة بما لا يتفق وأخلاق بتهوفن الحرة الثائرة . وعلى ذلك أكمل دراساته الموسيقية وحده فظل فيها من آثار النبو عن متعارف القواعد مالم يعبأ به نبوغه الخالق وقوته الخارقة للعادة وسلطانه الذى حلق فى السماك فخضعت له كل القواعد .

وعضده يومئذ البرنس لخنفسكى وآواه فى داره وفرض له ستمائة فلورينا سنويا . وألفت بينهما صداقة متينة لم تكن تخلو من أسباب لسوء التفاهم قضت دائما عليها الأميرة لخنفسكى التى كانت موسيقية تقدر فضل النابغة الذى يقيم معهم حق قدره .

ويومئذ كانت الثورة الفرنسية تغزو العالم كله بمبادئها . وكان بتهوفن خصما لها أول أمره . لكن مداومته قراءة هوميروس وأفلاطون وفرجيل وتاسيت وتبينه المبادىء الجمهورية التى قامت

عليها الثورة . جعل منه نصيرا من أكبر أنصارها . ولذلك لم يتردد حين جاء اليه الجنرال الفرنسي برنادوت يطلب اليه أن يضع لحنا symphonie لمجد فنصل الثورة بونابارت . وأتم بتهوفن اللحن وكان على أهبة ارساله الى باريس اذ علم أن نابليون توج نفسه امبراطورا . فما لبث أن عاد الى بيته ساخطا ومزق لحنه وقال : كلا ! هذا رجل مطامع كغيره من الرجال » ولم يرد أن يسمع بعد ذلك عنه خبرا . ثم ألح عليه أصدقاؤه بعد سنوات من ذلك كي يعيد هذا اللحن الى الحياة فغير فيه القطعة الثانية وكانت نشيد النصر ووضع بدلها نشيد الاسى ، كأنما ينعى به ما كان من انهيار آماله . وسمى اللحن لحن البطولة ، وأضاف الى عنوانه هذه العبارة « احياء لذكرى رجل عظيم » .

ومن يومئذ بدأت تواليفه ومصنفاته تفيض فيضا . فكتب عدة ألحان من خير ألحانه كما كتب اوبرا فدليو . ويومئذ أحس بسلطانه وآمن بقوته وفاض عنه الرضا بالحياة والسكينة لها . وتدل الصورة التي صورته في ذلك العصر على مبلغ طمأنينته وعظيم أمله في المستقبل . ففي سنة ١٧٩٦ كتب في مذكراته الخاصة يقول : « اقداما ! وبرغم أسباب ضعف الجسد فالنصر لعبقريتي . ها أنذا بلغت الخامسة والعشرين ... فيجب في هذا العام أن يظهر الرجل كاملا » وذلك على أنه كان ما يزال في بداية حياته العامة . فأول حفلة عامة له كبيانى وقعت في ٣٠ مارس سنة ١٧٩٥ . لكنه لم يبق لديه ريب في قوته ولم يخف ذلك على أحد من أصحابه . بل كان يباهي به على صورة قد لا يرضاها من لم يكن له مثل مولده . كتب الى الدكتور وجلر — صديق صباه في مسقط

رأسه — يخبره بنجاحه العظيم : فكانت الفكرة الأولى عنده ظاهرة فى قوله : « أرى مثلا صديقا محتاجا ؛ فاذا لم يسمح لى جيبى بالاسراع الى معونته لم يكن على الا أن أجلس الى منضدة العمل فاذا بى فى وقت قصير قد سددت حاجته ، ألست ترى هذا غاية فى الجمال ... ويجب أن أقف فنى على معونة الفقراء » .

لكن ! يالقسوة القدر ! فما كاد هذا النابغة القوى يتربع على دست عظمته حتى بدأت مقدمات الهم واليأس تسلك اليه مساربها . بدأت هذه الآفة التى نغصت عليه عيشه بقية أيامه منذ سنة ١٧٩٦ . فلم تمض على هذه السكينة للقوة العظيمة شهور حتى بدأ وجه الحياة يتجهم وبدأت نذر الشقاء تتقدم ، وبدأت مقدمات الصمم بطنين الآذان ليل نهار طنينا مزعجا . وقد ظل سنوات يخفى مرضه حتى على أعز أصدقائه . وكيف تريد موسيقيا على أن يقول للناس انه أصم ! لكن ذلك لم يقعد به عن مداومة العمل . ولئن ظهرت بعض آثار الحزن الناشئة عن آلامه فى عدد من الألحان التى وضعها فى ذلك الحين فقد بقى أكثرها بساما طروبا . غير أنه لم يطق كتمان علته بعد أن احتملها خمس سنوات تباعا . فكتب فى سنة ١٨٠١ يشكو هذه العلة الى كثير من اصدقائه ومن بينهم صديقه أمندا اذ كتب يقول له :

« عزيزى الطيب الرفيق امندا ... كم كنت أرجوك بجانبى . فصديقك بتهوفن بائس غاية البؤس . ذلك أن سمعى ، وهو أكرم أجزاء نفسى على ، قد ضعف كثيرا . وكنت أشعر منذ كنا معا بأعراض المرض وكنت أخفيه ، لكنه اطرد سوءه من بعد ، فهل

أشفى ؛ أرجو ذلك بالطبع ؛ ولكن رجائى فيه قليل • فمثل هذا المرض أشد مما سواه استعصاء على البرء • وسأضطر لقضاء العيش فى بؤس فأتجنب كل ما أحب وكل ما هو عزيز على ، وذلك بين عالم شقوة وأنانية ••• يالشقاء الاستسلام الذى يجب أن ألجأ اليه • لاريب أنى فرضت على نفسى السمو فوق كل هذه الآلام فهل ترى أستطيع تحقيق ما فرضت ؟ » •

هل من سبيل الى عزاء لبتهوفن عن هـذا الألم ؟ هل من وسيلة لتخفيف مضضه ومرارته ؟ الوسيلة الممكنة هى المرأة ؛ والسبيل هو الحب • فلو أن بتهوفن وجد يومئذ من يتعلق بها قلبه ، ويؤمن به وبعظمته قلبها ؛ لكان له من ذلك مايهون عليه بعض همه • ولقد كان منذ نشأته طيب القلب، عطوفا • لكن حبه كان قاسيا كالفضيلة التى امتلأ بها قلبه • وكان لذلك يرى عارا أن تتدلى الموسيقى للتعبير عن حب تشوبه الشهوة • ولذلك عاب على موزار قطعته « دون جوان » • على أن فضيلته القاسية هذه هى التى كانت سبب فشل علائقه الغرامية جميعا • ففى سنة ١٨٠١ تعلق جوليتا جوكشياردى وأهداها لحنه المعروف « ضوء القمر » ؛ وكتب الى صديقه وجلريقول له : « الآن أعيش أكثر سكينة وأختلط بالناس أكثر من ذى قبل • ولقد أبدع هذا التطور فى حياتى سحر فتاة عزيزة تحبنى وأحبها • وهذه هى اللحظات السعيدة الأولى التى تذوقت منذ عامين » • لكن هذا الحب زاده شعورا بمرضه كما أن جوليتا كانت لعوبا شديدة الانانية لا تعبأ بآلام بتهوفن • ولم تعف فى سنة ١٨٠٢ ، أى بعد سنة واحدة من حبها ، عن أن تتزوج من الكونت جالنبر • وكان حب بتهوفن اياهـا طاهرا

مخلصا ، فكانت خيانتها طعنة قاسية أصابت بها شغاف قلبه . على أنها لم تكتف بما فعلت بل جعلت تستغله لفائدة زوجها وجعل بتهوفن يذعن باسم الطيبة ويقول : « انه عدوى . ولذلك هو السبب فى اسدائى اياه كل خير استطيع اسداءه » .

وأدى به الصمم والمرض والانقطاع عن الناس وخيانة جوليتا الى اليأس من الحياة والى اليقين باقتراب ختامها . وزاد به اليأس حين ذهب الى « هيليجنستات » احدى ضاحيات فينا مستشفيا ، ومكث بها ستة أشهر لم يفد لسمعه خلالها شيئا . هنالك كتب وصيته التى تثبتها هنا ، وان كان قد عاش بعدها خمسا وعشرين سنة ، لانها تدل على عظيم ألم هذا الرجل العظيم كما تدل على عظيم نبوغه وعظيم ايمانه بفنه وعلى طهارة نفسه وطيبة قلبه وحبه الناس ، وتدل على أن هذه العواطف كانت فى نفسه هياجة ثائرة كهذه الموسيقى القوية الثائرة التى نسمعها له فى كثير من ألحانه ، وحتى فى ألحانه الرقيقة اللحمة والسدا . قال :

« يا أيها الذين ينظرون الى أو يحسبوننى حقودا أو برما بالناس أو متطيرا بالحياة لشد ما تظلموننى . انكم لا تعرفون السبب الخفى الذى يظهرنى بهذا المظهر . فقد كان عقلى وقلبى متجهين منذ طفولتى الى عاطفة رقيقة هى الطيبة ، وكنت دائما مستعدا لاقوم بعظائم الأعمال . لكن صوروا لأنفسكم بؤس حالى منذ ست سنين ، هذه الحال التى زادها الأطباء الاغرار سوءا والتى ما أزال أخدع فى أمرها عاما بعد عام آملا فى تحسنها ، ثم أضطر آخر الأمر لأحسبها حالا مزمنة يقتضى البرء منها ، ان كان فيه أمل ، سنين عدة ، وقد يكون هذا البرء محالا » .

« لقد ولدت ذا مزاج حاد نشيط مستعد لذوق مسرات الاجتماع ثم اضطررت وما أزال فى أول عمرى الى عيش العزلة ، وحاولت التغلب على ذلك فصدمتنى التجربة الاليمة القاسية غير مرة وجددت عندى الاحساس بمرضى . ثم انى ما كنت مستطيعا أن أقول للناس : ارفعوا الصوت وصيحوا فانى أصم . وكيف أستطيع أن أذيع ضعف حاسة كان يجب أن تكون عندى أدنى الى الكمال منها عند الآخرين . حاسة كانت فى الماضى بالغة من الكمال حدا لم يتح لقليل من أبناء فنى أن يبلغوه . كلا ! لا أستطيع ، فاعذرونى اذا ان رأيتمونى أعيش عيش العزلة بينما أريد أن أكون معكم وفى صحبتكم . وشقائى مضاعف له ألمى أن كان سببا للحكم على حكما قاسيا . ولقد منعت من أن أجد الراحة والطمأنينة فى الاجتماع بالناس وفى المحادثات الظريفة وفى العطف المتبادل . فانا وحيد منقطع . لا أستطيع أن أجازف بنفسى فى الجماعة . وما لم تكرهنى على ذلك حاجة ماسة فيجب أن أعيش منفيا . فاذا اقتربت من جماعة ملك على الاضطراب مجموع حواسى من خشية أن أتعرض لوقوف الناس على بينة أمرى » .

« ومن ثم أمضيت هذه الستة الأشهر فى الريف ، وقد طلب الى طبيبى الفاضل أن يعنى بسمعى جهد الطاقة ، وبلغ من ذلك أكثر مما كنت أرجو . ولقد شعرت غير مرة بالميل للاجتماع بالناس وتركت نفسى تنال مناها . ولكن ! أى مذلة أن أرى رجلا على مقربة منى يسمع قيثارة من بعيد ولا أسمع أنا شيئا ، أو يسمع غناء الراعى ولا أسمع أنا شيئا . ولقد قربت هذه التجارب بينى وبين اليأس حتى كدت أقضى بيدى على حياتى . لكنه الفن — نعم

هو الفن وحده الذى استبقانى . اواه ! لقد بدا لى أن من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن أتم كل ما أحسست انى مطالب بأدائه . وكذلك أطلت فى هذه الحياة البائسة . والبائسة حقا . لجسد سريع التهيج حتى لينقلب أقل تغيير من خير الحالات الى أسوئها ... صبرا — كذلك يقولون ! وهو الصبر الذى يجب أن أختاره الآن لى مرشدا . وقد اخترته . وانى لأرجو أن تظل عزيمتى على المقاومة ثابتة حتى ترضى الآلهة بالقضاء على بقية حياتى . وان يصلح الحال أو يسوء فانى لصابر . ألا ليس يسيرا أن يكره الانسان . وما يزال فى الثامنة والعشرين من العمر . على أن يكون فيلسوفا . وذلك أشد قسوة برجل الفن منه بأى رجل آخر » .

« اللهم انك لتستشف من سمائك حجب قلبى وتعرفه وتعلم أنه عامر بحب الناس والرغبة فى عمل الخير . وأنتم أيها الناس اذا قرأتم يوما هذا الذى أكتب فاذكروا كم كنتم ظالمين اياى . وان الشقى ليتعزى اذا رأى شقيا مثله قام برغم كل ما ألقت الطبيعة فى سبيله من عقبات بكل ما فى جهده أن يقوم به . كى يكون فى صف رجال الفن والصفوة المختارين » .

هيلجنستات فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢ **لدفج فان بتهوفن**

« هيلجنستات فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٠٣ — والآن وداعا ، وداعا أسيفا — ان الأمل العزيز الذى جئت به الى هنا ، هذا الأمل فى أن أشفى ولو الى حد يجب أن أيأس منه كل اليأس — وكما تتناثر أوراق الخريف وتذوى — كذلك هذا الأمل جف فى نفسى وذوى — كما جئت الى هنا أعود وقد فقدت حتى الهمة التى كثيرا

ما استندت اليها أيام الصيف الجميلة — أواه أيها القدر ! — هب لى أن أرى مرة واحدة يوم مسرة صفو — فما أطول الزمن الذى حبس عنى فيه رنين المسرة الصادقة العميق — أواه متى يارب ؟ متى أستطيع أن أحس بها فى معبد الطبيعة والناس ... أبدا ! — كلا ! فذلك يكون أبلغ القسوة » .

لم تنشر هذه الوصية الا بعد وفاة بتهوفن ، لكنها تدل على مبلغ ما كانت تضطرب به نفسه حين كتبها من الآلام ، وعلى شديد ايمانه مع ذلك بالفن . هذا الايمان الذى جعله يستأخر الموت وان كان فى الموت راحة له من شقوته وأوصابه ، ويستأخره ليتم رسالته وان عانى فى سبيل اتمامها من الآلام مالا قبل لغيره باحتماله . كذلك ترى النوابغ حقا يستهينون فى سبيل ابراز مواهبهم بكل ما يحرص الناس عليه وبكل ما يجزعون منه ويفرون . فبينا كان بتهوفن يكتم هذه الصيحات الفاجعة مكتفيا بترجيعها فى صدره بينه وبين نفسه ، وباثباتها على القرطاس لتكون سبيلا الى سلامه بعد موته ، كان أخواه يستغلان ألحانه استغلالا ماديا ما كان بتهوفن ليعنى به لولا حبه لأخويه حبا يتفق مع عظمة الفضيلة التى تفيض بها نفسه أناشيد وألحانا قدسية سامية . وكثيرا ما خاطبه أصحابه فيما يجنى عليه أخواه من مساءات ، فكان جوابه وهو يبكى : « لكنهما أخواى » . وما لأخويه وبكائه ؟ انه لهما مزرعة تستغل ومورد رزق فياض . كتب أحد أخويه لناشر طلب بعض قطع أصلية من ألحان بتهوفن وأناشيده :

« ليس لدينا من ذلك الآن الا لحن وعزيف كبير للبيانة وثمن كل ثلاثمائة فلورين . أفتريد ثلاث سونات للبيانة ؟ نحن لا نستطيع

أن نقبل فيها أقل من تسعمائة فلورين : على أن تسلم بعد خمسة أسابيع أو ستة ، لأن أخى أصبح لا يعنى الآن بأمثال هذه التفاهات ولدينا ... » وذكر بتية « البضائع » . وبتهوفن لا يفيد من ذلك المال كله الا ما يقيم حياته المليئة بالآلام . فأما هذه الحياة التى يحتفظ هو بها للفن فليست فى ملكه ، لأنها هبة القدر للوجود كله فى حاضره ومستقبله . هى قيثارة قديسة بعثتها يد العناية الى هذا العالم ، لتنشد الناس كل ما أبدعت العناية فى الخلق من نغمات . والى أن تتم هذه الرسالة الواجبة عليها يجب أن يبقى صاحبها معذبا شقيا ، ويجب أن يستريح لعذابه ولشقوته ، أو على الأقل يجب أن ينسيه ايمانه برسالته وانصرافه بكل وجوده لابلاغها هـذا الشقاء وهذا العذاب .

لكن المرأة هى البلسم والشفاء لعذابه أو لتسكينه . وقد عبثت جوليتا ببتهوفن عبثا قاسيا رغم ما كان من شديد تعلقه بها . فهل جفاه الحب بعد ما جفته هذه اللعوب الأثرة والمحبة لترف الحياة التافه أكثر من حبها لمجد العظمة الخالدة ؟ كلا ! فما تزال لبتهوفن ساعات سعادة فى الحياة ينعم بها رغم همه ، وملاك هذه الساعات المخلص الطاهر هى : تريزبرنسويك .

وكان بتهوفن قد عرف تريز منذ أيامه الأولى فى فينا أن كان يعلمها البيانة . لكنه لم يعلقها يومئذ ولم يسر الى قلبه خاطر الحب منها وان اتصل بأخيها الكونت فرنسوا بصداقة متينة . فلما كانت سنة ١٨٠٦ وكانت جوليتا قد تزوجت منذ ثلاث سنين زار بتهوفن صديقه القديم فى مارتنفاسار بالمجر . قالت تريز : « وبعد العشاء ذات مساء أحد جلس بتهوفن فى ضوء القمر الى البيانة ومر بيده

على ملامسها . وكنت أعرف أنا وأخى ذلك منه . فكذلك كان يبدأ دائما . ولعب بعض تقاسيم على طبقات القرار . ثم انتقل من ذلك الى لعب أغنية سباستيان باخ : ان شئت أن تهبنى قلبك فليكن ذلك أول الأمر فى خفية حتى لا يستطيع أحد أن يحس مسارح أفكارنا المشتركة . ولعب هذا اللحن فى وقار وهيبة ، وكانت أمى وكان القسيس قد ناما ، ونظر أخى الى ما أمامه ذاهلا . أما أنا فأخذتنى نظرته وأخذنى غناؤه وأحسست بالحياة كاملة . وفى صباح الغد تقابلنا فى الحديقة فقال لى : أكتب الآن أوبرا أرى بطلتها فى دخيلة نفسى وأراها أمامى حيثما ذهبت وأينما أقمت . وما أحسبنى سموت يوما هذا السمو . فكل ما أمامى ضياء وطهر ونور . وفى شهر مايو أصبحت مخطوبته باقرار أخى فرنسوا وحده » وظلت هـذه الخطبة حتى سنة ١٨١٠ حين انفصمت عروتها وان لم تنفصم عروة الحب بين الخطيبين اللذين عاشا به سعيدين حتى مات هو فى سنة ١٨٢٧ وماتت هى وما تزال على عهده فى سنة ١٨٦١ .

وكان لهذا الحب فى نفس بتهوفن وفى حياته الموسيقية أثر أى أثر . فاللحن الرابع الذى كتب فى أول أعوام الخطبـة زهرة تتضوع بشذا السكينة والخلود الى صفو العيش مع الناس . وكذلك كانت الالحان التى كتبت فى هذه السنوات أقل ثورة وأكثر ترنما بنغمة الحب والحياة ، ومنها لحن الريف بأغاريد بلابله وأطياره وأغنيات شبانه وعذاراه . ولم يقف أثر الحب عند موسيقى بتهوفن بل تعدى الى حياته فجعله محبا للتأنق فى ملبسه ميالا للاختلاط بالناس والتحدث اليهم حاضر النكتة ظريفا . وبلغ من ذلك أن الناس نسوا صممه ولم يلاحظوا عليه الا ضعف بصره الحاد النظرة .

ومن ذلك العهد السعيد فى حياة بتهوفن يحفظ التاريخ خطابا يبث فيه لتريز ما يبعثه الحب المضطرم فى النفس الثائرة من عواطف مضطربة متلاطمة . قال فيه :

« ياملاكى وكلى ونفسى . انظرى فى بدائع الطبيعة واطمئنى الى ما هو محتوم .. فالحب يلح عدلا فى أن يكون له كل شىء ، ذلك شأنه معى فى أمرك ، وهو شأنه معك فى أمرى . ان قلبى ليفعم بما أريد أن أبثك اياه . أينما كنت فانت معى . انى لأبكى حين اذكر أنك لن تقفى على أول اخبارى قبل يوم الاحد على الغالب . انى أحبك كما تحبيننى بل أقوى وأشد . الهى ! أية حياة هذه من غيرك ... فانت قريبة بعيدة . وأفكارى تتدافع نحوك يامحبوبتى الخالدة ، وهى سعيدة طورا ، حزينة تارة ، تسائل القدر هل هو سيرعانا ... انا لا استطيع العيش الا معك والا فلا عيش لى . ولن ينال غيرك قلبى ابدا . ابدا ! لم يجب يارب ان يبتعد متحابان كل عن صاحبه . على ان حياتى انما هى الآن حياة أحزان . ولقد جعلنى حبك فى نفس الوقت أسعد الناس واشقاهم . اطمئنى . اطمئنى . وأحبينى اليوم وبالأمس . ما أعظم تطلعى اليك وما أكثر دموعى من أجلك . أنت . أنت . أنت ياحياتى . ياكلى وداعا — وأقيمى على حبى ولا تنسى أبدا قلب حبيبك بتهوفن — لك الى الأبد — لى الى الأبد — لنا الى الأبد » .

وهذا الخطاب كوصيته وجد فى أوراقه بعد موته . ولعله كتبه فى آخر سنوات خطبة تريز له . ففيه من اليأس أكثر مما فيه من الرجاء . وهذه العبارة التى يسائل فيها القدر هل هو سيرعاهما تنبىء عن بداية انحلال الخطبة . على أن قلبه وقلبها ظلا عامرين

بهذا الحب الى آخر حياتهما . فمن كلمات بتهوفن فى سنة ١٨١٦ :
« يدق قلبى كلما ذكرتها بنفس القوة التى دق بها حين رأيتها لأول مرة » . وفى هذه السنة عينها ، سنة ١٨١٦ ، وضع الأنغام الأربع البديعة . « الى العـزيزة المحبوبة النائية » وكتب فى مذكراته « يفيض قلبى لمشهد هذه الطبيعة البديعة وهى مع ذلك ليست هنا الى جانبى » وكانت تريز قد أهدت اليه صورتها وكتبت عليها هذا الاهداء « الى النابغة الفذ والفنان العظيم والرجل الطيب » . وقد دخل صديق على بتهوفن فى آخر سنة من سنى حياته فألفاه يقبل الصورة ويبكى ويناجى نفسه بصوت رفيع . « لقد كنت جميلة ، وكنت عظيمة ، وكنت كالملائكة الاطهار » . وبلغ من شدة تأثره لفراق تريز أن كتب يوما الى أحد أصدقائه « أيها المسكين بتهوفن — محدثا عن نفسه — ليس لك فى هذا العالم حظ من السعادة ، انما حظك منها فى رحاب المثل الأعلى ، فلك فيه أصدقاء » وكتب فى مذكراته « اسلاما ! واسلاما تاما لحظك . أنت لم تعد تستطيع أن تعيش لنفسك وانما تعيش لغيرك ولم يبق لك من نعيم فى غير فنك . اللهم هبنى قوة الانتصار على نفسى » هذا ولم تفتأ تريز تذكر بتهوفن الى آخر حياتها . فكيف انفصمت الخطبة ولم يجمع بينهما الزواج ؟ ذلك ما لم يقف عليه أحد . ولعله كان لفقر بتهوفن واختلاف مكانته مع مكانة تريز الاجتماعية . ولعله كان لطبع بتهوفن الحاد القاسى السريع الى التطير والذى لا تهون الحياة البيتية معه .

على انه كان قد وصل فى سنة ١٨١٠ الى أوج قوته وجلس على عرش مجده . وكان يحس هذه القوة ولا يتواضع بسببها . رأته بتينا برنتانو المغرمة بمعرفة عظماء الالمان فى سنة ١٨١٣ لأول مرة .

ولم تكن فى حاجة الى أكثر من مرآه وسماع حديثه حتى سحرت به وقالت :

« ليس فى العالم ملك ولا امبراطور له مثل هذا الشعور بقوته » • ثم كتبت الى جيتى تقول : « لما رأيته لأول مرة انمحى الوجود كله من أمامى • ولقد أنسانى بتهوفن العالم وانسانى اياك أيضا يا جيتى • وما أظننى مخطئة أن أؤكد أن هذا الرجل يسبق المدنية الحديثة بمراحل » • وأراد جيتى أن يعرف بتهوفن فتقابلا فى حمامات بوهميا بتوبلتز فى ذلك العام نفسه لكنهما لم يتفاهما • فخلق بتهوفن العنيف الحر لا يتفق مع خلق جيتى الرقيق الوادع • ذكر بتهوفن نزهة لهما كان فيها قاسيا كل القسوة مع دوق فيمار • قال فى خطاب بعث به الى بتينافون ارنم :

« يستطيع الملوك والأمراء أن يخلقوا الاساتذة والمستشارين وأن يغرقوهم فى الرتب والالقاب • لكنهم لا يستطيعون أن يخلقوا عظماء الرجال والاذهان التى تسمو على المجاميع • فاذا اجتمع رجلان مثلى أنا وجيتى وجب على هؤلاء السادة أن يحسوا بعظمتنا • ولقد تقابلنا أمس حين عودتنا فى الطريق مع العائلة المالكة كلها وكنا قد رأيناهم من بعيد فانتزع جيتى نفسه من ذراعى ليقف على حافة الطريق • وعبثا قلت له كل ما أردت أن أقوله فلم يزحزحه ذلك خطوة واحدة عن موقفه • عند ذلك كبست قبعتى فى رأسى وزررت ردنجوتى وسرت وذراعى وراء ظهرى وسط الجموع الكثيفة • وأفسح الأمراء والحاشية لى طريقا ورفع لى الدوق رودلف قبعته • وكانت الامبراطورة أول من حيانى • فالعظماء يعرفوننى • أما جيتى فمر أمامه الجمع وهو فى مكانه على

حافة الطريق منحن أشد الانحناء وقبعته فى يده . وقد لمته أشد اللوم بعد ذلك ولم أغتفر له قط تصرفه » .

ولم ينس جيتى له هذه المساءة وظل بينه وبينه ما كان بين فولتير وروسو فى آخر حياتهما . قال جيتى لزلتر : « بتهوفن شخصية لا سبيل مع الأسف الى تألفها . وقد لا يكون مخطئا اذ يرى العالم كريها . لكن خلته فى الحياة ليست هى الوسيلة التى تجعل العالم حلوا له ولغيره . على أن من الواجب أن نعذره وأن نشفق عليه . فهو أصم » . على أن كراهية جيتى لم تمنعه من الاعجاب ببتهوفن ومن تقديسه وان جاهد لاخفاء ذلك طاقته ! ذكر مندلسن أن جيتى سمع أحد ألحان بتهوفن فحاول اخفاء اعجابه قائلا : « هذا لايمس القلب ولكنه يثير الدهشة » ثم لم تمض لحظات حتى غلبه اللحن وجماله ، فلم يتمالك أن قال : « هذا بديع وعظيم وفوق العقل . انى لأحس كأن البيت سينطبق على » وبعد أن كان لا يريد أن يسمع اسم بتهوفن جعل يسأل عن أمره .

وكان الدوق رودلف الذى أشار اليه بتهوفن أحد التلاميذ القليلين ممن رضى هو أن يكون أستاذا لهم . وبرغم اعفاء الدوق اياه من تكاليف البلاط ونظامه فقد كان يشكو مما بقى مضطرا له بداعى المجاملة من هذه التكاليف . ومن طريق الدوق رودلف عرف كثيرين من الأمراء وأعضاء البيت المالك الذين لم يكونوا يأبهون للعظماء ، أمثال هايدن وموزار ، وان بقى لديهم شىء من العطف على البائس بتهوفن . وزادوا عليه عطفا حين بدأ نجم نابليون يأفل . فان بتهوفن لم ينس خيانة هذا الجمهور الذى اتخذ الشعب سلما للامبراطورية . فلما انتصر الانكليز عليه فى

موقعة واتر لو وضع بتهوفن لحنا للانتصار ولنجتون مجده فيه كما مجد حروب الاستقلال التي أقامتها أمم أوربا ضد فرنسا . وفي أوائل سنة ١٨١٤ وضع لحنا حربيا عن « بعث ألمانيا » . فلما انعقد مؤتمر فينا على أثر هزائم نابليون كان بتهوفن في ذروة عظمته وقوته . فشارك في أعياد المؤتمر على أنه عنوان من عناوين مجد أوربا . ورأس في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨١٤ الاركسترا التي لعبت أمام ملوك العصر نشيده عن « ساعة المجد » . فلما سقطت باريس في سنة ١٨١٥ وضع نشيدا جعل عنوانه « انتهى كل شيء » . وكذلك ظهرت قوته ومقدرته وظهر خلقه المثابر وبطشه وجبروته . هذا الجبروت الذي أباح له بعد موقعة بينا احدى مفاخر نابليون أن يقول : « من سوء الحظ أني لا أعرف الحرب كما أعرف الموسيقى . اذا لهزمته » .

وكان حظ بتهوفن مذبذبا : فما تكاد آونة طمأنينته تطول به زمنا حتى تعقبها آونة شقاء أطول منها وتعدل مرارتها أضعاف حلاوة تلك الآونة . فكما تخلى عنه الحب مرتين تخلت عنه فينا بعد هذا المجد والسلطان لمجرد انتهاء أعياد النصر . وبلغ أن فكر في هجرتها رغم ما كان من اتفاق الدوق رودلف تلميذه والبرنس لوبكوفتز والبرنس كنسكي منذ سنة ١٨٠٩ اذ رتبوا له معاشا سنويا أربعة آلاف فلورين على أن يظل في النمسا ليظل فخرا لها . ورغم ما كان من عدم وفائهم كل الوفاء فانه سر بهذا الاعتراف بمجده . فلما مرت أعياد النصر عكف من جديد على العمل . لكن الصمم كان يزداد حتى كان تاما في سنة ١٨١٦ . وبذلك أصبح بتهوفن لا يسمع موسيقى ولا يسمع لحنا ولا نشيدا الا في دخيلة قلبه .

وكم لاقى بسبب ذلك من عناء وهم . فقد أراد أن يدبر أوبرا فدليو فى سنة ١٨٢٢ . وكان جليا منذ الفصل الأول انه عاجز عن هذه الإدارة كل العجز . فقد كانت عصاه بطيئة ، فكانت الآلات الموسيقية بطيئة معها . لكن المغنين لم يكونوا يستطيعون اتباع هذه الموسيقى فكانوا يسرعون . وحصل اضطراب اضطر معه مدير الجوق العامل الى ايقاف التمثيل . ثم عاد بتهوفن الى الادارة وعاد التمثيل الى الاضطراب . قال صديقه الدكتور شندلر : « ولم يقو قلب أحد على أن يدفعه ليقول لبتهوفن : تنح أيها البائس ، فأنت عاجز عن الادارة : ووقف التمثيل للمرة الثانية فوقف بتهوفن ينظر فى كل ناحية يريد أن يعرف سبب الاضطراب . ولما لم يفهم شيئا نادانى اليه ومد الى كراسته لأكتب له . فكتبت : أرجوك أن لا تستمر وسأفسر لك فى البيت سبب ذلك . فما هو الا أن قفز صائحا بى : فلنعجل بالخروج . وجرى الى بيته بكل ما مكنته قواه وهنالك ارتمى على مقعد وسند بيديه وجهه وجلس حتى ساعة الطعام لا ينطق بكلمة . وساعة الطعام ظل صامتا وعلى وجهه أثر الألم الفاجع والانحلال الأليم . فلما كان بعد العشاء وأردت أن أتركه رجانى أن أصحبه الى طبيب كان معروفا بأنه من خير أطباء الآذان ... وفى كل ما تلا ذلك من صلاتى ببتهوفن لم أر يوما كهذا اليوم القاسى من أيام نوفمبر ... وقد بقى هذا المشهد الأليم طعنة فى قلبه حتى فاجأته منيته » .

وفى سنة ١٨٢٤ كان حاضرا لتمثيل رواية على موسيقاه . ولما انتهت الموسيقى صفق الناس أشد التصفيق فلم يسمع شيئا ولم يعرف من أمر اجلال الناس لقطعته الا بعد ما أمسكت مغنية بيده

وأدارت وجهه الى ناحية الجمهور ليرى الأيدى المصفقة والقبعات التى تهتز فى الأيدى علامة الاعجاب والثناء .

وعاون بؤس الصمم وألم المرض ما وقع فيه من حاجة واعواز ، فهذا الذى كان يفرض أخوه أثمان ألحانه على الناشرين فرضا وصل فى أخريات أيامه ليكتب هذه العبارة لأحد تلاميذه : « أكتب هذه (السونات) فى ظروف شاقة . فمن المحزن أن يضطر الانسان للكتابة كى يحصل الخبز . وهذا هو حالى اليوم » . وكتب فى مذكراته الخاصة : « لقد صرت حتى أكاد أتكفف الناس » . وقال عنه أحد معاصريه وأصحابه انه كان لايستطيع الخروج من بيته فى بعض الأحيان بسبب ثقوب حذائه .

وفى هذه الأيام الأخيرة كان لا يأنس الى الناس ولا يعرف غير الطبيعة . فكان يرى هائما فى الغابات والأحراش ، وليس له هم الا تدوين الأنغام والألحان لا يحول بينه وبين ذلك حر ولا قر ولا مطر ولا ثلج . قالت تريز دى برنسويك : « كانت الطبيعة صديقه الوحيد » وكانت كل مذكراته تفيض هياما بهذا الوجود المطلق الحر تمام الحرية والذى تتجلى فيه عظمة الخالق وقوته . ولذلك كانت موسيقاه تفيض بمعانى الطبيعة فيضا ، حتى لكأنما بلغ من شدة هيامه بها أن صار قوة من قواها أو أنه « ملك روحها » على حد تعبير صديقه شندلر . كتب الموسيقى الكبير شومان يصف أثر أحد ألحان بتهوفن فى نفسه : « مهما يتكرر سماع الانسان لهذا اللحن فانه مؤثر فينا بنفس القوة التى أثر بها من قبل . فهو كالظواهر الطبيعية التى تملؤنا دائما خوفا ودهشة مهما تكرر حدوثها » .

ولعل بتهوفن كان محبا للطبيعة ، لأنه من روحها لا لأنه مالك هذا الروح . ولذلك كانت حياته ، ككل ما فى الطبيعة ، حياة نضال لا يعرف اليأس ، وعمل لا يعرف الكلال ، وتجدد لا يعرف الجمود . فما كان المرض ولا الصمم ولا خيبة الحب ولا الفقر الذى بلغ الاعواز ، بمانع له من أن يتم فى عالم النغم رسالته . أو تدرى ما هذه الرسالة التى كان يجاهد فى سبيلها خلال ما أثقل حياته من كوارث وأحزان ؟ كانت رسالته بعث المسرة على الأرض . فكأنما كان القيثارة العتيقة المحطم كثير من أجزائها والتى بالغ الصانع فى اتقانها ، فما تزال مبعث أحلى الانغام وأبدعها . ولقد كان بتهوفن يؤمن برسالته هذه كل الايمان . ومنذ ظهرت بوادر نبوغه فى الموسيقى فكر فى تبليغها للناس عن طريق الالحان ، ففكر فيها وما يزال فى يونية سنة ١٧٩٣ . وكانت نهاية أمله أن يتوج أحد أعماله الموسيقية الكبرى بلحن المسرة . وكان ذلك دأبه وهو فى أشد حالات العذاب والألم . لكنه كان يتردد دائما أن لم يكن شىء مما وضعه ليكفى مقنعا لصورة المسرة عنده . وظل ذلك شأنه حتى السنوات الأخيرة من حياته حين وضع اللحن التاسع . حينئذ وفق لهذا النشيد الذى يرجوه . ولكن أى توفيق وأية عظمة ! .

قال أحد الكتاب يصف هذا النشيد البديع الذى يختم اللحن التاسع : «ساعة تبدأ آية المسرة تبدو ، يقف الاركسترا فجأة ويسود المسرح سكون تام يخلع على مطلع النشيد معنى قدسيا رهيبا . وذلك حق . فهذا النشيد اله وحده . ثم تهبط المسرة من السماء تحيط بها طمأنينة الخلد فتسكن الآلام بريحها الناعم تجرى الى

القلب جريان البرء فى فؤاد المريض . ثم تسمو بعد ذلك فى صورة من الجلد المهيب رويدا رويدا حتى تملك المسرة النفس وتغزوها وتعلن فيها حربا على الألم عوانا . ثم اذا الالحان تحرك فى النفس جنود السرور تحسها فوق هذه الصحف المرتعشة . فكأنما ترى نبض بتهوفن القوى وشدة تنفسه وصيحاته الملهمة حين كان يجوب المزارع ويضع لحنه وكأنما ملكته قوة الشياطين . وتعقب مسرة الحرب مسرة الروح مسرة بالايمان . ثم تجيش بالنفس مسرة مقدسة هى مسرة الحب . ثم ترى انسانية مرتعشة تمد أذرعها للسماء صائحة صيحات قوية مندفعة الى المسرة تضمها الى قلبها » .

هذه القوة العجيبة التى تبدو فى أكثر ألحان بتهوفن والتى بدت فى لحن المسرة مضاعفة ، جعلت كثيرين يذهبون الى أن ملكه فى الموسيقى يقف عند الضخم منها والاليم . قال هبوليت تين ردا على هذا وتحليلا لموسيقى بتهوفن عامة : « نعم انه صاحب هذا الملك من أراض جرداء تهب فيها الاعاصير وتعصف فيها العواصف باصواتها الصاخبة القوية . وهـذه المملكة لم يتح لغـيره من الموسيقيين أن يدخلها . لكنه يعيش كذلك فى ملك آخر . فأفخر ما فى الريف الناضر واكثره رواء وبهجة ، وأعذب ما فى الوديان الظليلة وأكثره ابتساما ، وأشد ما فى ضياء الفجر أول مطلعه رقة وبكورة — هذا كله كذلك فى ملكه . لكنه لا ينال من ذلك كله ما يناله مطمئن النفس ، بل تهز المسرة كل وجوده كما يهزه الألم ! وشعوره باللذة بالغ غاية القوة . فهو ليس سعيدا ، ولكنه فى بهر . فمثله مثل رجل قضى ليلة نابغية وخرج منها مضطربا كليما متوقعا يوما شرا منها ، فاذا به يرى فجأة مشهد صباح سعيد . اذ ذاك

تضطرب يده ويتنفس الصعداء من أعماق صدره وتعود كل قواه الجسمية المنحلة فتسترد سلطانها ، ويصبح فى نهله من النعيم أشد انتفاعا مما كان حين استسلامه لليأس » .

ولما اطمأن له نشيد المسرة واطمأن هو لنجاحه فيه ، هانت عليه أحزانه وآلامه وهان عليه فقره وان ظل يعانى من بأسائه شر ما يعانيه انسان . ولعل لهذا الفقر صلة بتلك الثروة التى كان أخواه يقتضيانها من الناشرين ، فقد مات أحدهما تاركا من ورائه ولدا أحبه بيتهوفن بهذه القوة التى كان يندفع بها الى كل شىء . وسار الفتى سيرة سيئة لم يصلح منها حب عمه اياه ولا مداومته نصيحته . وكان هذا الفتى كثير الاستدانة ، فكان بتهوفن فى فرط حبه له يعمل جهد طاقته لسداد ديونه . وسافر بتهوفن فى خريف سنة ١٨٢٦ يبحث عن وسيلة يوطد بها مستقبل ابن أخيه هذا . فلما عاد فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٢٦ أصابه برد أمرضه . ولم يكن أحد من أصدقائه حاضرا ليعنى به . فكلف الفتى أن يبحث له عن طبيب ، فنسى مدى يومين ثم جاء الطبيب وعالج بتهوفن علاجا سيئا . وقد استطاع بقوة بنيته أن يقاوم المرض ثلاثة شهور تباعا ، لكنه ضعف بعدها ضعفا أضاع الأمل فى شفائه . ولولا كرم بعض الانكليز من أصدقائه لقضى آخر أيامه فى بؤس وشقوة ليس كمثلهما بؤس ولا شقوة .

ثم جعل ينتظر فى صبر وسكينة « ختام المهزلة » حتى يوم ٢٦ مارس سنة ١٨٢٧ ، اذ عصفت عاصفة وهطلت ثلوج وأرعدت السماء وهاجت الطبيعة أصوات موسيقاها المهوبة المخيفة . وعلى موج هذه الأصوات طارت روح بتهوفن الى عالم الخلد . وكان عمر

بتهوفن يومئذ ستا وخمسين سنة وثلاثة أشهر وتسعة أيام . فلما آن لجثمانه أن ينقل الى مقره الأخير شيعه ثلاثون ألفا ، ولبست فيينا عليه الحداد . ودفن فى مقبرة وارنج . وما يزال الى اليوم فيها وعليه هذه الكلمة الوحيدة الخالدة : بتهوفن .

وكذلك قضى من كان يرى الموسيقى الهاما أسمى من الحكمة ومن الفلسفة . ويتمثل أفكاره فى عزف الآلات أكثر مما يتمثلها فى ألفاظ الناس . وكذلك قضى « باكوس . الذى يستصفى للانسانية الرحيق العذب ويجلى عليها أقدس ما فى الروح من جلال » . قضى ونقل الى قبره حيث خط اسمه . لكن روحه الماثل فى ألحانه وأناشيده وعزفاته ما يزال باقيا ولن يزال . وهل الروح الخالد الا العمل يترك به صاحبه فى العالم أثرا خالدا ؟ . وهل أثر أخلد من موسيقى بتهوفن ! أم هل أثر أكثر منها سحرا وقداسة ؟ ! .

واليوم يحتفل العالم بمرور مائة عام اجلالا لألحانه القدسية السامية ، فيؤدى بعض دين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالا وفضلا وقوة .

(كتبت فى ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ لمناسبة مرور مائة عام على وفاة بتهوفن) .

هبوليت أدولف تين

احتفلت فرنسا منذ أيام بمرور مائة عام على مولد الفيلسوف الكاتب الفرنسى الكبير هبوليت أدولف تين . فقد ولد بفوزييه فى الحادى والعشرين من ابريل سنة ١٨٢٨ أى منذ مائة سنة مضت. واذا لم يكن قد مضى على موته الا خمس وثلاثون سنة — اذ مات بباريس فى الخامس من مارس سنة ١٨٩٣ — فان الآثار التاريخية والأدبية والفلسفية التى خلفها تجعله حقيقا منذ اليوم بأن يسجل فى ثبت الخالدين ، وتجعل حقا له وواجبا على وطنه فرنسا أن يشيد بذكره بين من يشيد بذكرهم من عظماء تلك البلاد . بل ان هذه الآثار لتجعله حقيقا منذ اليوم بأن يذكره العالم كله بين الرجال الذين كانوا قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم ، نقله ونقل تفكيره خطوة جديدة وفتح أمامه من أسباب البحث سبلا ان يكن غيره قد ترسمها من قبل فان أحدا سواه لم يرسمها ولم يخططها بالقوة والدقة والمهارة التى رسمها وخططها بها تين . ويكفى ليقدر القارىء مدى هذا الأثر العميق الذى تركه تين فى تفكير العالم أن يسمع من كثير ، حتى من الذين تناولوا تين وتفكيره بالنقد ، أنه كان أكبر أثرا فى نشر الفلسفة الواقعية (البوزتفزم) من صاحبها أوجست كومت نفسه . وأنه الى جانب تثبيته قواعد هذه الفلسفة الوضعية فى ذهن أهل عصره والعصور التى خلفته قد فتح لها ميادين جديدة فى الفن وفى الأدب وفى الشعر وفى كل صور

نشاط العقل الانسانى والنفس الانسانية بما جعل للعلم الوضعى وللفلسفة الوضعية من متانة الاركان ما لا يزال حتى اليوم وطيدا قويا غاية القوة رغم موجات الروحية والتيوزوفية وغيرها مما سبق الحرب وشجعته الحرب . ومما لا يستطيع أن يقاوم — حتى فى الميادين الفلسفية البحتة — تيار العلم الجارف الذى يدل الناس كل يوم على أن العلم اذا أخطأ فى تقرير نتائج معينة . لأن الاستقراء أو الملاحظة أو التجارب لم تكن كاملة حين تقرير هذه النتائج ، فالعلم وحده هو القدير على اصلاح هذا الخطأ من طريق الاستقراء والملاحظة والتجارب وما يترتب على هذه من تبويب ينتهى الى استنباط القوانين العلمية الصحيحة التى يمكن أن تكون أساسا لارتكاز الفلسفة الواقعية الصحيحة .

رجل هـذا أثره فى التفكير الانسانى لا يمكن لوطنه الا أن يعترف له بالمجد وأن يذكره لكل مناسبة . ولا يمكن للعالم أن ينسى له فضله على التفكير الانسانى وتوجيهه فلسفته فى فترة خاصة من حياة هذا التفكير .

على أن لتين الى جانب هذا الفضل العلمى العظيم فضلا آخر لا يقل عنه . بل يريد بعضهم أن يذهب الى انه يفوقه ، ذلك هو فضله ككاتب . فهذا الرجل الذى حاول ونجح فى محاولته هدم الفلسفة الكلامية التى كان الاستاذ فكتور كوزن عميدها فى عصره . والذى حاول ونجح فى أن يقر الى جانب التفكير الواقعى positive المذهب الجبرى «déterminisme» وأن يطلق هذا المذهب على الانسان ويخضعه له بمقدار ما تخضع له الافلاك والموجودات كلها — هذا الرجل كان صاحب أسلوب فى الكتابة له من البهر

ما يسحرك كما تسحرك قطعة من الموسيقى أو لحن من الغناء ، حتى ليدعوك الى أن تعود الى قراءة الصفحة مرات ، وحتى ليترك فى ذاكرتك صحفا معينة تود الوقت بعد الوقت أن تعود الى قراءتها وترديدها بصـــوت عال لتسمع الى ألحانها كما تسمع الى ألحان أوركسترا بتهوفن . وانى لأذكر الآن ، على ذكر اسم بتهوفن ، فصلا له فى كتابه (مذكرات عن باريس Notes Sur Paris) فصلا عنوانه (خلوة Une tête à tête) وصف فيه ايقاع ألحان بتهوفن وصفا ما أزال ولن أزال ألذ لقراءته ولترديده لذتى سماع ألحان هـذا الموسيقى فى سمفونية الريف التى أحبها ولا أشبع من سماعها . وليس هذا الفصل الذى ذكرت الا واحدا من كثير من الفصول ومن الكتب ومن المطولات التى كتبها تين والتى لا تفتأ ترد الى الخاطر وتتردد فى خلايا الذاكرة كلما ذكر الانسان النغم الحلو الساحر فى تعبير الكتاب فى أية لغة من اللغات .

ولعل أروع ما كتبه تين فى هذه الناحية الأدبية هو ما كتبه فى الوصف والسياحة . فكتابه الذى ذكرت لك عن باريس ، وكتابه « مذكرات عن انكلترا » وكتابه عن جبـال البرانس ، وكتابه عن رحلته فى ايطاليا ، هـذه كلها كتب بلغت فيهـا براعة الوصف مبلغا قل أن يجاريه فيه كاتب . ولقـد ذكرت لك هـذه القطعة عن موسـيقى بتهوفن . وأنت تعلم أن الكاتب اذ يكتب مثل هـذه القطعة انما يعتمد على ذاكرته . وذاكرة السمع هى التى كانت تحرك قلم تين حين وصف الموسيقى . مع ذلك فلم تكن ذاكرة السمع أقوى ذاكرات تين . بل لقد ذكر لنا هو نفسه فى كتابه De l'Intelligence أن أقوى ذاكراته ذاكرة الألوان ، وأن المنظر

الذى تقع عليه عينه تختزنه ذاكرته أكثر مما تختزن أية صورة تتصل باحدى الحواس الأخرى . فاذا كان ماذكرت لك عن سونات بيتهوفن هو بعض ما وعت ذاكرة السمع عند تين ، فلك أن تقدر بعد ذلك كيف كان وصفه لما وعته ذاكرة المرئيات وألوانها عنده ، وكيف استطاع بأسلوبه المتموج الزاهى الشديدة الحركة والحياة أن يثبت الألوان المختلفة التى اختزنتها ذاكرته فى سياحاته الكثيرة .

وليس فضل تين مقصورا على فلسفته وعلى أدبه ، فهو الى جانب ذلك مؤرخ من أكبر المؤرخين الفرنسيين . أقول المؤرخين الفرنسيين ولا أقول مؤرخى فرنسا . لأنه لم يقتصر على كتابة تاريخ بلاده . واذا كان كتابه « أصول فرنسا الحديثة » الواقع فى اثنى عشر جزءا هو من أمهات كتب التاريخ الفرنسى . وكان يتناول عصر ما قبل الثورة . كما يتناول عصر الثورة والعصور التى بعدها ، فانه قد تناول الى جانب هذا التاريخ بحوثا أخرى فى التاريخ القديم وفى التاريخ الحديث ، وتناولها كما تناول كل مباحثه على طريقته الخاصة التى سنعرض فيما بعد لها ، وتناولها بدقة فى البحث وبدقة فى العبارة وقوة فى الاسلوب جعلت له كل هذه المكانة التى كانت له فى عصره ، وكل هذا المجد الذى يشهد له به اليوم حتى ألد خصوم نظرياته . ويكفى أن يطلع الانسان على كتابه « تاريخ الآداب الانكليزية » ليقدر مدى ما لهذا الكاتب من سعة اطلاع ودقة بحث وعمق تفكير شهدت كلها له بأن قليلين من الانكليز أنفسهم هم الذين تناولوا بحث آداب لغتهم بهذه السعة والدقة والعمق . فأما مباحثه التاريخية الأخرى ،

ومباحثه التى مزج فيها التاريخ بالأدب ، فتزيدك بهرا ودهشة . اقرأ « تيت ليف » وعصره من عصور التاريخ الرومانى . اقرأ « لافونتين وأقاصيصه » . اقرأ كتبه الثلاثة « رسائل فى النقد وفى التاريخ » ثم سائل نفسك كيف كان يصنع هذا الرجل ليحيط بكل هذه الأشياء خبرا ، وكيف كان يصنع ليمحصها كل هذا التمحيص ، وكيف كان يصنع ليكتب كل هذه الكتب ، وكيف كان يصنع ليؤدى كل هذه الأعمال ، وليؤديها بهذا الجمال وبهذه الدقة وبهذه القوة .

ورسائله فى النقد والتاريخ قد جعلت منه نقادة معترفا بفضله وبسلطانه ، وقد أقامت له مذهبا فى النقد يتسق مع مذهبه فى الأدب وفى التاريخ وفى الفلسفة وفى كل ما تناول من مباحث . وعندى أن مذهبه فى النقد أقرب الى الدقة من كل مذهب سواه . فهو أشد المذاهب امعانا فى « الموضوعية » . هو اذا عرض لكتاب أو لمؤلف لم يعرض له من جهة تقديره الشخصى للكتاب أو لصاحبه ، ولكن بعد تحليل كل ما أحاط بالمؤلف ومؤلفه من ظروف . وبعد مقارنة هذا المؤلف بكل ما يستطيع مقارنته به ممن عاصره ورمى الى مثل غرضه . ولست أدرى اذ أقول ان مذهبه أقرب الى الدقة من كل مذهب سواه . أأنا متأثر بتقدير ذاتى أم بذكريات خاصة . فلقد قرأت كتبه فى النقد والتاريخ منذ أكثر من اثنتى عشرة سنة وتركت فى نفسى من الأثر ما لم تتركه كتب أناتل فرانس « الحياة الأدبية » وما لم تتركه كتب أستاذ النقد الكبير سنت بيف نفسه . ولست أشك فى أن كثيرين قد يتذوقون نقد جول لمتر أو فاجيه أو بورجيه أو بول سودای أكثر من تذوقهم نقد تين . وربما كان

حكمى أنا أيضا يتغير لو أن الظروف التى أحاطت بقراءتى تغيرت . لكننى ما أزال أشعر حتى اليوم حين أعرض لقراءة كتاب وحين أفكر فى نقده ، ولو لنفسى ومن غير أى فكرة فى الكتابة عنه ، على الطريقة التى أحبتها نفسى منذ قراءة كتب تين .

لتين الى جانب هذه الميادين الكثيرة ميدان آخر لم يقتصر على التأليف فيه . بل كان فيه ، كما كان فى بعض الميادين الأخرى ، مدرسا أيضا ، ذلك ميدان الفن الجميل . ولقد كان تين موسيقيا ، فلا عجب اذا هو تحدث أو كتب عن الفن الجميل . لكنك اذ تقرأ كتابه « فلسفة الفن » تراه يحلل الفن وصوره وتماثيله بالطريقة عينها التى يحلل بها المسائل النفسية والمسائل المادية ويخضع الصور والأنغام لقواعد الجبرية التى يخضع لها كل ما فى الوجود من سماوات وأفلاك وكائنات . أليست الفنون بعض ثمرات الانسان « والانسان ثمرة وسطه » على ما يقرر تين غير مرة وفى غير موضع ؟ والوسط الذى يعيش فيه الانسان ليس خاضعا له ولكنه خاضع لعوامل طبيعية وتاريخية لا قبل له بها ولا سلطان له عليها . اذن فالفن ثمرة محتومة لهذه العوامل ، ويمكنك أن تفسره وأن تفهمه بشرح هذه العوامل ، كما يمكنك ببسطها أن تفسر وأن تفهم أى عمل من أعمال الانسان .

ولكن ليس معنى أن « المرء ثمرة وسطه — أو بيئته ان شئت » أن الناس يتساوون فيما بينهم كما تساوى ثمر الشجرة الواحدة . بل ان ثمر الشجرة الواحدة لا يتساوى ، فمنه الكبير والصغير ومنه الصالح والفاسد . والناس كذلك منهم الصغير والكبير والصالح والفاسد . وأنت تستطيع أن تعرف الفرق بين ثمر الشجرة

بأن تشقه وأن تصل الى دخيلته . فكيف تستطيع أن تصل الى دخيلة الرجل لترى مبلغ ما يختلف أولئك المتشابهون من ثمر الوسط الواحد تشابه ثمرات الشجرة الواحدة واختلافها ؟ الامر هين يدلك عليه تين فى مختلف من مواضع كتبه ، ويدلك عليه بنوع خاص فى كتابه عن « الذكاء » ويفرد له مقدمة الطبعة الاخيرة من تاريخ الأدب الانكليزى التى طبعت سنة ١٨٩١ .

فكل مظاهر الرجل وكل أعماله ، وكل مطامعه ومشاعره هى المسالك الى دخيلة نفسه . فاذا أنت أردت على هذه الطريقة نفسها أن تعرف تين حق المعرفة فيجب أن تعرف كل مظاهره وكل أعماله . وكم كنا نود لو استطعنا القيام بهذا البحث فى هذه العجالة القصيرة عن حياة ذلك الرجل العظيم . لكنا مع ذلك نكتفى بالقليل الذى أتاحت لنا الظروف أن نعرف عنه عن الكثير الذى لا سبيل الى معرفته غير الانقطاع لدراسة تين وحياته وكل كتبه دراسة ذاتية لا تتسنى الا لأستاذ فى الفلسفة أو فى الأدب الفرنسى . ولعلنا فى هذا الاكتفاء بالقليل الذى نعرف لا نغمط تين حقه . ثم لعلنا لا نعدو بعض مباحثه التاريخية فى النقد . فأمامنا بعض الشىء عن حياته ، وأمامنا مؤلفاته الكثيرة ، وهى صورة نفسه وخلاصة حياته . وأمامنا الى جانب هـذا أسلوبه ، والاسلوب — على ما قال تين — هو الانسان .

* * *

ولد هبوليت تين اذا بفوزييه بمقاطعـة الأردن فى فرنسـا فى ٢١ ابريل سنة ١٨٢٨ من عائلة رقيقة الحال . وكان لابيه جان باتيست تين اتصال بالقضاء . لذلك استطاع تين أن يتلقى عليه

تعاليمه الى جانب دراساته بمدرسة مسيو بيرسن الصغيرة حتى بلغ الحادية عشرة من عمره • واذ ذاك مرض أبوه فأرسل به فى سنة ١٨٣٩ الى مدرسة دينية فى (رتل) أقام بها ثمانية عشر شهرا توفى أبوه خلالها تاركا ثروة بسيطة لأرملته وابنه وابنتيه • وبعد وفاة أبيه سافر الى باريس فالتحق بمعهد ماتيه • وكان تلاميذ هذا المعهد يدرسون بمدرسة بوربون (Collège Borbon)، وفيها ظهرت بوادر كفاياته النادرة كما اتصل فيها بأصدقاء كان لهم أثر أبلغ الأثر فى مستقبل أيامه من أمثال بروفوبارادول ، وبلانا ، وكرنوليس ، وفث وغيرهم •

ولقد امتاز تين لأول دخوله المدرسة بمقدرة على العمل مدهشة وباكباب عليه لا يقل اثارة للدهشة • فلقد كان يكتفى لرياضة نفسه بعشرين دقيقة يقضيها لعبا بعد العشاء وبساعة يلعب أثناءها الموسيقى بعد الغداء • أما فيما سوى هذا وفيما سوى أوقات الطعام والنوم فكان لا يصرفه عن العمل صارف • وكان لذلك كثير التحصيل كثير التعليق على ما يحصل كثير التفكير فيه مما جعل له على أصدقائه جميعا نفوذا معترفا به منهم اعترافهم بفضله وبمقدرة فى الكتابة نظما ونثرا فى اللغتين الفرنسية واللاتينية •

وبعد انتهاء دراساته الثانوية انتقل الى مدرسة المعلمين (L'Ecole Normale). وفيها ازداد اكبابه على الدرس ، فقرأ أفلاطون وارسطو وآباء الكنيسة كما استمر يدرس الانكليزية التى أتقنها ليدرس آداب اللغة الانكليزية • واذا كان تين قد ظهر تفوقه أثناء دراساته الثانوية وأثناء مقامه بمدرسة المعلمين حتى لقد كانت الجوائز الأولى كلها من نصيبه ، فان الروح العلمية المنطقية التى

امتاز بها بعد ذلك والتى وضع على قواعدها مذهبه فى البحث قد تبينت أثناء وجوده فى مدرسة المعلمين بنوع خاص . فقد لاحظ عليه أساتذته جميعا مبالغته فى دقة الحرص على المنطق والسلوك به مسلكا رياضيا والوصول به دائما الى قاعدة على نحو ما يصل الرياضيون فى مسائل الحساب والهندسة والجبر . أثبت استاذه فاشرو فى مذكراته عن تين وما يزال تين طالبا بمدرسة المعلمين ما يأتى : « أكثر تلميذ عرفت فى المدرسة جدا ورقى نفس . علم مدهش بالنسبة لسنه . تحمس وشره للعرفان لم أر له مثالا . ذهن يلفت النظر بسرعة التصور والدقة والمرونة وقوة التفكير . لكنه يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة . مولع بالقواعد والتعاريف حتى لكثيرا ما يضحى بالحقيقة من أجلها ، ومع ذلك لا يظن أنه يضحى بالحقيقة لأنه كان مخلصا لها أشد اخلاص . وسيكون تين أستاذا ممتازا . لكنه سيكون أكثر من ذلك وفوق ذلك عالما من الطراز الأول اذا أتاحت له صحته الاشتغال بالعلم زمنا طويلا . ومع ماله من دماثة فى الخلق عظيمة ومن طباع غاية فى الطيبة ، فلذهنه قوة لا تلين حتى لن يستطيع أن يكون لأحد على تفكيره أى تأثير . وهو على كل حال ليس من أهل هذا العالم . فسيكون شعاره شعار سبنوزا « يعيش ليفكر » . أما خلقه وأما طبيعته فيمتازان بمناعة لا يستهويه معهما اغراء .

على أن هذا التفوق الذى كان للطالب تين لم يكن ليعترف الناس به من غير أن يجنى على صاحبه جنايته . ومتى كان لتفوق رجل من الناس تفوقا عقليا أن لا يجنى عليه فى نظر ذوى السلطان والذين يمسكون بيدهم مصير الجماعات ؟! صحيح أن هذا التفوق

يقدر عند المخلصين للحقيقة والذين لا مصلحة لهم فى سؤدد آراء ومبادىء معينة ، وهذا التقدير هو الذى يكفل انتصار الحق ولو بعد حين . لكن تين ، الذى كان يقضى كل وقته قراءة وبحثا ، والذى أوتى هبة النقد والتمحيص منذ شبابه ، والذى لا يستطيع أن يسلم بغير ما يعتقده الحق ، تين هذا ، وهو طالب ، لم يكن ليقر كثيرا من المبادىء الفلسفية التى كانت تدرس يومئذ وغايتها اما تأييد ناحية دينية تجعل التفكير خاضعا للمبادىء المسيحية التى تريد الكنيسة أن تسود ، أو تأييد ناحية علمية خاصة هى ناحية المنطق المطلق ، أو المنطق المجرد ، مما كان يدرسه كوزن وغير كوزن من فلاسفة ذلك العصر . وقد خرج تين ، وما زال طالبا ، على هاتين الطريقتين من طرائق التفكير ، ورأى فيها وسائل غير صالحة للكشف عما فى العالم من حقيقة . ووضع تين ، وما يزال طالبا ، قواعد تفكيره هو ، هذه القواعد التى سار عليها فى مستقبل أيامه ، مجاهدا لاكمالها ما استطاع ، ولكن من غير أن يرى فى كل دراساته وبحوثه ما يطعن عليها أو ينقضها . واذا فهو ثائر على التعاليم المقررة . واذا فيجب ألا ينجح فى اجازة الفلسفة التى تقدم لها مع زميليه أوبيه وسوكو فى سنة ١٨٥١ . وليكن عدم نجاحه هذا وهو المشهود له بالفضل والتفوق عزاء لغيره من الذين تقدموا للاجازة نفسها فرسبوا وهم دونه تفوقا وفضلا .

ولم يغير عدم نجاحه فى اجازة الفلسفة من رأيه ولا من عزمه . واستمر فى عمله وبحوثه وان اشتغل بالتدريس فى المدارس المختلفة أن عينه وزير المعارف مدرسا بمدرسة (نفير) فى مفتتح عام ١٨٥١ الدراسى . لكنه لم يبق فى هذه المدرسة الا شهورا نقل بعدها

الى مدرسة دونها فى الدرجة . ذلك أن اضطرابا سياسيا وقع فى فرنسا واتهم المعلمون بأنهم سببه وطلب اليهم أن يعتذروا وأن يشكروا رئيس الجمهورية على التعديلات التى أدخلها على نظام الحكم . فكان تين هو الوحيد الذى رفض الاعتذار والشكر . وعلى ذلك أنذر ونقل الى بواتييه ومنها نقل مساعد مدرس الى بزانسون فى سبتمبر سنة ١٨٥٢ .

ومع تنقلاته الكثيرة وعدم رضى السلطات عنه فان نشاط تين لم يفتر ودراساته وتحصيله لم يهنا وايمانه بمذهبه فى البحث لم يضطرب . فقد وضع رسالة عن المشاعر (Les Sensations) ورسالة لاتينية تقدم بها الى السوربون لنيل اجازة الفلسفة . ولما كانت هذه الأجازة قد ألغيت فقد أراد أن ينال بهما اجازة الآداب (Agrégation-ès-lettres) لكن طريقته فى التفكير جنت عليه هذه المرة كذلك فلم تقبل رسالته . فوضع رسالة أخرى عن لافونتين هى التى نال بها دكتوراه الآداب فى ٣٠ مايو سنة ١٨٥٣ .

ومن بعد حصوله على الدكتوراه عرضت الاكاديمية الفرنسية موضوعا لجائزة تمنح فى سنة ١٨٥٥ رسالة تكتب عن تيت ليف الكاتب والمؤرخ الرومانى الكبير ، فتقدم لها تين وكتب فيها رسالة كانت هى الأولى بين كل الرسائل التى قدمت .

بعد هذه المجهودات المضنية ست سنوات تباعا شعرتين بالحاجة حاجة ماسة مطلقة الى الراحة ونصح له بأن يذهب الى جبال البرانس ، وطلب اليه الناشر هاشت أن يكتب له دليلا عنها فوضع كتابه « سياحة فى البرانس » وصف فيه هذه الطبيعة الجميلة العجيبة وعادات أهلها وقصصهم وصفا دقيقا ، ناقدا ما رأى موضعا لنقده

مازجا ذلك كله بفلسفته . متبعا حتى فى هذا الكتاب طريقته الجديدة التى جنت عليه من قبل .

ماهى هذه الطريقة الجديدة ؟ وكيف يمكن أن تجنى على كاتب فى عصر كالعصر الذى عاش فيه تين والذى تقررت فيه حرية الرأى والنشر على انها مكفولة مقدسة ؟ .

أما طريقة تين فى رسائله التى تقدم بها للامتحانات وفى كتاب تيت ليف وفى غير ذلك من الكتب التى ظهرت والتى ستظهر حتى آخر أيام حياته . فتقوم على فكرة أساسية هى تطبيق الطريقة الواقعية — أو الوضعية — التى قررها أوجست كمت على الأحياء بنفس الدقة التى تطبق بها على غير الاحياء . وتطبيقها على الانسان وعلى النفس والروح بنفس الدقة التى تطبق بها على الاحياء الأخرى غير الانسان وعلى غير الأحياء . فكما أن طريقة البحث العلمى فى شأن غير الاحياء هى الملاحظة والتجربة واستنباط القوانين على قواعد هذه الملاحظة والتجربة ، فيجب اتباع هذه الطريقة بعينها فى شأن الحيوان والانسان على السواء . وأنت لكى تدرس غير الأحياء فأنت تحلل الشىء ، وأنت ترجعه الى نظائره وأشباهه ، وأنت تلاحظ تأثره بالبيئة المحيطة به وتأثيره فيها ثم تستنبط القوانين الخاصة به بعد اذ تنظم ملاحظاتك وتجاريبك وتبوبها وترتبها . ثم أنت تعمد لتقف على حياة الحيوان الى تأثره عن طريق حواسه بالأشياء المحيطة به ، كما أنك اذا أردت أن تعرف تاريخه عمدت الى ما قد يكون باقيا فى الأحجار من آثاره ، هذا فضلا عن التجائك فى تجاريبك عليه الى كل الوسائل المختلفة التى يلجأ اليها الكيمائيون والأطباء وغيرهم فى معاملهم . ذلك كذلك

يجب أن يكون شأنك مع الانسان . يجب ألا ترى فيه عالما مستقلا وسط هذا العالم الذى تعيش فيه . انما هو جزء من هذا العالم خاضع لقوانينه وأحكامه متأثر به مؤثر فيه تجرى عليه السنن التى تجرى على غيره من الخلائق . فاذا أردت أن تبحث فى أى شأن من الشؤون يتعلق به وجب عليك أن تلجأ الى الطرائق العلمية التى تلجأ اليها فى الظروف الأخرى وأن ترى فى أعماله ومشاعره واحساسه وتصوراته وسائل الوصول الى دخيلة نفسه . هذه دون سواها هى الطريقة الأكيدة التى تصل بك الى شىء يقرب من الحقيقة . وهذه يجب أن تكون أساس البسيكولوجيا وأساس التاريخ وأساس الاجتماع وأساس العلوم المتصلة بالانسان جميعا . فأما الطريقة التى تقيم هذه العلوم على قواعد المنطق المجردة التى تجعل من استجمام الشخص فى طوايا نفسه ووسيلة رسمه للعالم ما يستلهمه من صورته ، فليست من الطرائق العلمية فى شىء ولا يمكن الاعتماد عليها اذا نحن أردنا أن نقيم علما انسانيا أو فلسفة انسانية على قواعد علمية صحيحة .

هذه هى الطريقة الجديدة التى امتاز بها تين والتى جنت عليه فى كثير . وهى قد أصبحت اليوم قديمة وقد أصبح يرد عليها نقد كثير أساسه ما فيها من تطرف وغلو . لكنها كانت جديدة يوم نادى بها تين . وكانت عمادا قويا للمذهب المادى . فهى لا تقر للروح ولا للنفس ولا لأمثال هذه الألفاظ بمدلولات مستقلة قائمة بذاتها بعيدة عن مادة الجسم ، بل هى ترى كل ما فى الجسم بعض مادته كما أن كل ما فى أى موجود من الموجودات بعض مادة هذا الموجود . واذا كانت هذه المادة ذات ارادة وذات خلق وذات

تصور وتفكير . فان هذه المظاهر ليست الا صور القوة الكمينة فى المادة ، أو ان شئت التعبير الدقيق ، فهى بعض صور المادة متحولة قوة لأن المادة والقوة شىء واحد بدليل تحول كل منهما الى الآخر حين تفاعله مع غيره من القوى أو المواد . وما دام ذلك هو الشأن وكانت القوة والمادة تخضعان لقوانين ثابتة لن تجد لها تبديلا . فمن الخلط الذى لا يبرره مبرر أن تختلف طريقة البحث فى الانسان عنها فى غير الانسان ، ومن الخطأ المبنى على العقائد الرائجة انتهاج سبيل فى بحث شؤون النفس غير السبيل العلمية المقررة فى سائر الشؤون .

كانت هذه الطريقة جديدة يوم نادى بها تين . لكنه نادى بها منذ كتبه الأولى على صورة واضحة وبأسلوب قوى لفتا الأنظار له ، وبخاصة أنظار مفكرى ذلك العصر ومن كانت بيدهم مقاليد الجماعة فى التفكير وفى الحكم . واذا التفتت أنظار هؤلاء فلا تفكر فى حرية مكفولة ولا فى حرية مقدسة . انهم ، ان كانوا مخلصين حقا ، يعتبرون أنفسهم حماة الجمعية ونظامها ، ويرون فى محاربة الأفكار التى تخالف أفكارهم محافظة على هذا النظام . وكثيرون منهم يشعرون ، وان لم يقولوا ، بأن المحافظة على نظام الجماعة جديرة بأن تهدر من أجلها كل حرية ، لأن الحرية لاتوجد الا حيث يوجد النظام .

ونشر كتابه « سياحة فى البرانس » وصف فيه هذه الجبال الفاصلة بين فرنسا وأسبانيا وأخلاق أهلها وطبق فى وصفه وفى تحليله نظرياته التى أشرنا اليها . على أنه لم يكتف من سياحته بالرياضة وبوضع هذا الكتاب ، بل هو ظل يستمع لقارىء

استصحبه فى جولاته وظل يفكر فيما يسمع ويعلق عليه . أليس شعاره أنه يعيش ليفكر ! فاذا هو كان فى رياضة قضت بها صحته ، أو هو كان فى مكتبه ، فليس أمامه ما يمنعه عن التفكير كما أنه ليس أمامه ما يمنعه عن التنفس . ولقد كان فكره بحاجة الى العمل حاجة رئتيه الى الهواء ، حتى لقد يخيل الى من يقرأ تاريخ حياته أن هذه الحياة تتعرض للخطر اذا هو انقطع عن التفكير العلمى الجدى يوما من الأيام .

ولقد أفاد من سياحاته فى البرانس لصحته ، وأفاد من قراءته وتفكيره ، وأفاد شيئا جديدا لم يكن له من قبل به عهد ، ذلك هو اتصاله بالحياة الخارجية ولو اتصالا محدودا . فلقد عاش منذ أيام تلمذته وليس يعرف غير كتبه ومكتبته وغير البيانو يوقع عليه الألحان التى يحبها والتى يجد فيها سلوة عن كل تعبه . وكان من أثر ذلك عليه أن جعله — على ما قال فاشرو — يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة ، ويولع بالقواعد والتعاريف حتى لكثيرا ما يضحى بالحقيقة من أجلها . أليس مافى الكتب منطق مجرد ! أوليست كتب ذلك العصر ، حتى كتب الفلاسفة الواقعيين ، قليلة التحليل للوقائع الصغيرة ! فلتين عذره اذا هو سارع الى تقرير النتائج ووضع التعاريف والقواعد ما دام يسير على الطريقة التى رسمها لنفسه على أنها سبيل الحقيقة ، ومادام لم يتصل بالعالم الخارجى اتصالا يجعله أكثر ميلا لتحليل الحوادث الصغرى واستقرائها وترتيب النتائج عليها . فلما أتاحت له زيارة البرانس الاتصال بالحياة أتاحت له مع هذا الاتصال شيئا من التؤدة فى منطقه الرياضى السريع وجعلته أكثر عناية باستيعاب أكثرما يستطيع

استيعابه من الوقائع الصالحة لاقامة ما يريد أن يقيمه عليها من نظريات وقواعد .

وعاد من البرانس فعاش مع امه فى جزيرة (سان لوى) ثم اختلط من جديد بأصدقائه بلانا وبريفو پرادول وأبو وتعرف الى رينان ، ومن طريقه عرف سانت بيف وجدد علاقته مع مسيو هافيه الذى كان أستاذا له بمدرسة المعلمين مدى ثلاثة أشهر . وكما عاد الى أصدقائه عاد الى جده وانتاجه حتى لتعتبر السنتان ١٨٥٥و١٨٥٦ من أكثر سنى حياته نشاطا وأغناها انتاجا . فلقد نشر عشرات المقالات فى مجلة L'Instruction Puplique كما نشر مقالا فى مجلة « العالمين » . وفى سنة ١٨٥٧ بدأ يكاتب جريدة « الديبا » واستمر بعد ذلك على مكاتبتها طويلا .

والذى يقرأ كتبه الثلاثة : « رسائل فى النقد وفى التاريخ » وكتابه « الفلاسفة الانشائيون فى القرن التاسع عشر » يرى اتجاه مجهوده العقلى فى تلك السنوات الخصبة من حياته ، ويرى مبلغ هذا المجهود الضخم الذى تناول بحث اليونانيين القدماء وكتاب فرنسا وفلاسفتها وكتاب انكلترا ومفكريها . ذلك فى دقة واحاطة قل نظيرهما . وما ذا تريد أن تكون الدقة والاحاطة أكثر من أن يعرض تين أمام نظرك فكرة كل كاتب وفلسفته وأسلوبه وأن يحلل ذلك وأن يرده للبيئة وللجنس اللذين نشأ الكتاب فيهما وأن يدلك على ما يراه النقاد غيره وما يراه هو فى الكاتب وفكرته من قوة وضعف وكمال ونقص ودقة فى بلوغ الغاية التى قصد اليها الكاتب أو اضطراب فى نهج السبيل الى تلك الغاية . وهذه هى طريقته التى سار عليها منذ تلك الأيام فى النقد . وهى الطريقة

العلمية الصريحة التى لا تعرف المواربة ولا المداجاة ، ولا تعرف مذاهب الشك والتردد ، والتى تقفك من كل كاتب ومن كل موضوع على خلاصة الموضوع وعلى صورة واضحة من الكاتب على نحو ما رآه تين .

وقد طبع تين مباحثه عن الفلاسفة الانشائيين ونشرها فى أوائل سنة ١٨٥٧ ، أى فى التاسعة والعشرين من عمره . ومع أنه الى ما قبل ذلك التاريخ قد لقى من رجال الجامعة ومن وزارة المعارف عنتا ، فان رسائله المختلفة التى نشرت لم تثر من النقد الا ماكتبه أصدقاؤه عن سياحة البرانس وما كتبه الاستاذ الكبير جيزو عن تيت ليف . لكنه ما لبث أن نشر « الفلاسفة الانشائيين فى القرن التاسع عشر » حتى تكلم عنه كثير من كبار نقاد عصره أمثال سانت بيف وشرر وبلانش وغيرهم مما زاد فى ذيوع رفعته ككاتب وكمفكر وكفيلسوف مجدد فى الطريقة وفى الاسلوب .

ولم يكن عجبا أن ينال هذا الكتاب من كتب تين تلك المكانة ؛ فهو قد قصد به الى هدم الفلسفة الكلامية التى كان يدرسها ويقررها فى ذلك الوقت لارمجييه ومين دبيران والمسيو فكتور كوزان . وكان فكتور كوزان صاحب مقام كبير فى ذلك الظرف ، وكان القائم بتدريس الفلسفة فى كلية فرنسا ، وكان درسه مقصد المئات من المستمعين . لذلك كانت حملة تين عليه أشد من حملته على صاحبيه . فكان يقول عنه أنه بحاثة غير فيلسوف . وكان يرى فى هذه الفلسفة الكلامية أو الانشائية شذوذا معيبا على قواعد العلم التى تقررت منذ أوائل ذلك القرن ، وعودة الى قواعد قديمة عقيمة تخلط بين طريقة ديكارت التى تبدأ بالشك ، والنظريات

الالمانية التجريدية الصرفة . وهو قد سلك فى هدمه لتلك النظريات مسلكا جمع بين المنطق الدقيق الذى امتاز به وبين التهكم بتلك الطرائق العتيقة البالية من طرق البحث عن الحقيقة تهكما ظهرت فيه مقدرة تين ككاتب الى جانب تفوقه كمفكر وكفيلسوف . ثم هو قد أيد ما قررته مباحث عصره الحديثة مما جاء به أوجست كومت وداروين وغيرهما من الذين وضعوا قواعد العلم الواقعى وأسس نظريات التطور . ثم هو قد أضاف الى ذلك نظريته الخاصة بتطبيق هذه القواعد تطبيقا لا هوادة فيه على الانسان كتطبيقه على غير الانسان وعلى الجماد . واذا كانت هذه النظرية قد لقيت فى بادىء الأمر شيئا من معارضة الهيئات الجامعية ، فان المباحث العالية التى نشرها تين مشبعة بها والمقام الذى كان يرتفع اليه يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، جعل نجاح كتابه عن الفلاسفة الانشائيين نجاحا حاسما ودعا الكثيرين الى أن يعيدوا النظر فيما يقرره هؤلاء الفلاسفة من قواعد ، وجعل ما وجهه كارو وغيره الى تين والى رينان من نقد أساسه رميهم بالالحاد . لا يلقى من المفكرين والعقلاء وذوى الرأى أى التفات له بأكثر من الاشفاق على كاتبيه والرثاء لحالهم .

وكما جمع مقالاته عن الفلاسفة فى كتابه هذا فقد جمع رسائله فى النقد وأظهر الجزء الأول من (رسائل فى النقد وفى التاريخ) سنة ١٨٥٨ ، على أن كتابة هذه الرسائل وجمعها ونشرها لم يشغله عن متابعة بحوث تاريخية فى الأدب الانكليزى شغف بها منذ أيامه الأولى وشغل بها منذ مطالعاته بعد ترك مدرسة المعلمين . ولقد نشر الأجزاء الأولى حتى بيرون فى سنة ١٨٦١ واستمر يكمل هذا

الكتاب الذى يعتبر ككتابه عن (الذكاء) وكتاب (أصول فرنسا الحديثة) أما من أمهات كتب تين وأثرا باقيا من آثار تفكيره . وقد أتم هذا الكتاب ونشره كاملا فى سنة ١٨٦٣ ووضع له المقدمة التى أشرنا من قبل اليها والتى حلل فيها صلة الانسان بالبيئة وبالجنس وبالعصر الذى يولد فيه تحليلا انتهى منه الى أن المرء ثمرة هذه العوامل الثلاثة ، وانك اذا استطعت أن تعرف كل الدقائق المحيطة بهذه العوامل الثلاثة استطعت أن تضع للانسانية من القوانين الثابتة ما لا سبيل الى تبديله الا أن يكون لتبديل سنن الكون العامة سبيل .

والحقيقة أن هذا الكتاب الذى وضعه تين عن آداب اللغة الانكليزية قد أضاف الى مجده فيلسوفا ومؤرخا مجده كاتبا . ولئن كانت رسالته عن سياحة فى جبال البرانس قد دلت من ذلك على شىء كثير ، فان وصفه للعصور المختلفة التى مرت بها انكلترا وأثرت فى أدبها قد دل على خصب فى الخيال لا يقل عما كان لتين من دقة فى المنطق . وأنت تقرأ صحف هذا الكتاب المتتالية فتنتقل من تحليل نفسانى دقيق لكاتب من الكتاب أو شاعر من الشعراء أو عصر من العصور ، الى وصف جمع بين الدقة المنطقية والخيال الشعرى لحياة ذلك الكاتب أو الشاعر ولحياة جماعة أهل ذلك العصر . وهذا التداول بين دقة المنطق وخصب الخيال هو الذى طوع لكثيرين من نقاد تين أن يقولوا عنه انه منطيق شاعر أو خيالى فيلسوف . وربما وجدت لهذا النقد فى بعض كتب تين مسوغا . لكنك تقع دائما على ما يدلك على أن تين كان يشعر تمام الشعور بهذا التداول وكان يحرص على ألا يجنى أحد جانبى نفسه على

الجانب الآخر . فمما يقع تحت قلمه عبارات تتردد آنا بعد آن يذكر فيها انه جاوز الحد مضطرا فى استعمال المجاز وفى الالتجاء الى الخيال ويعود بعدها الى منطقه المحكم وتحليله الدقيق . فيشرح البيئة الطبيعية والعصر ومميزاته والجنس وخصائصه ويطبق ما يستنتج من ذلك كله على الكتاب والشعراء الذين يحللهم ويرسم بذلك صورة مضبوطة من هذا الأدب الانكليزى الذى استغرق تاريخه أربعة أجزاء من كتب تين .

وكان تين قد رشح نفسه فى سنة ١٨٦٢ ليقوم بتدريس الأدب فى مدرسة الهندسة . لكن مسيو دى لمونى انتخب بدلا منه . على أن وزير الحربية عينه فى مارس من السنة التالية ممتحنا فى التاريخ واللغة الالمانية بمدرسة سان سير الحربية . وفى سنة ١٨٦٤ شغل مقعد تدريس تاريخ الفن والجمال فى كلية الفنون الجميلة . فكان تعاقبه فى وظائف الدولة هذه سببا لاثارة الخوف فى نفس رجال الدين مما دفع المونسنيير دوبانلو ليكتب منشورا يوجه به الى الشبيبة والى الآباء يطعن فيه طعنا جارحا على تين ورينان وليترى ويشهر فيه بنزعاتهم الالحادية مما كاد يودى بمركز تين لولا تدخل البرنسيس ماتيلدا لحمايته .

وفى سنة ١٨٦٤ وجه بكتبه الى الاكاديمية ليحصل على جائزة بوردان ، فانبرى له مونسنيير دوبانلو من جديد واشترك معه آخرون ليحولوا بينه وبين الجائزة . على أن مسيو جيزو دافع عنه بكل اخلاص واستمرت المناقشة أمام الأكاديمية فيمن يستحق الجائزة ثلاثة أيام متتالية استقر الرأى بعدها على أن الجائزة لا تمنح

لأحد ما دامت لا تمنح لتين • ومن ذلك التاريخ فتر اهتمام تين بالاكاديمية وتعضيدها أو عدم تعضيدها له •

على أن هذه الخصومات المتتابعة وهذا التجنى على ذلك الكاتب الفيلسوف الكبير لم يحل دون حصوله على وسام اللجيون دونير فى سنة ١٨٦٦ وعلى شهادة D. C. L. من جامعة اكسفورد بعد محاضرات ألقاها بها عن راسين وكورنى فى سنة ١٨٧١ •

ومنذ عين تين أستاذا لتاريخ الفن والجمال فى كلية الفنون الجميلة اتسع له زمن البحث وميدانه ووجد من الوقت ما يسمح له بالسفر فى بلاد مختلفة وبخاصة فى ايطاليا مهد الفن ومنبت أجمل ما أبدع المثالون والمصورون من آثار •

على الطريقة التى كتب بها تاريخ آداب اللغة الانكليزية كتب فى سنة ١٨٦٥ كتابه (فلسفة الفن) وفى سنة ١٨٦٧ نشر رسائل عن المثل الأعلى فى الفن أتبعها بمقالات عن فلسفة الفن الفلمنكى والفن اليونانى ضمت كلها بعد ذلك الى كتاب فلسفة الفن •

كتب هذا الكاتب على طريقته فى كتاب آداب اللغة الانجليزية • فالى جانب وصفه الممتع للآثار الفنية المختلفة ترى نظريته الثابتة التى تخضع الفن كما تخضع كل مظاهر الحياة الانسانية ، وكما تخضع الانسان نفسه ، الى الطريقة العلمية فى البحث ، طريقة التحليل والمقارنة والاستنباط وارجاع كل أثر من هذه الآثار الى البيئة والجنس والعصر التى نشأ فيها صاحب الأثر • وهذا فى نظره هو السبب الأساسى لاختلاف كل مدرسة من مدارس الفن عن سواها • فالفن الايطالى غير الفن الفرنسى وغير الفن الفلمنكى وغير الفن الانكليزى ، لأن البيئة الايطالية تختلف عن كل واحدة

من هذه البيئات الأخرى ، وان أمكن أن يوجد شيء من الشبه بين منتجات هذه المدارس المختلفة اذا هى كانت معاصرة بعضها لبعض لما فى هـذه المعاصرة نفسها من داع لوجود مشابهة قليلة أو كثيرة فى التفكير والتصور والنظر بين الفنون المختلفة . وذلك هو سبب الاختلاف بين المذاهب المختلفة فى الأمة الواحدة اذا هى اختلفت عصورها وان كان فى اتفاق البيئة والجنس ما يبعث اليها شبها قويا يصل بينها فى الروح والحياة .

وفى أوائل سنة ١٨٧٠ نشر كتابا ثانيا من أمهات كتبه . ذلك كتابه (فى الذكاء) . ولقد ذكر هو فى مقدمة هذا الكتاب أنه ثمرة بحث وتفكير عشرين سنة كاملة . والواقع أن بين هذا الكتاب وبين رسالة « المشاعر » التى قدمها ليحوز بها جائزة الفلسفة فى سنة ١٨٥١ صلة كبرى . ذلك بأنه يرد الذكاء فى الانسان الى احساسه ومشاعره ، وان كل حس يؤثر بمحسوساته فى مراكز الذكاء فى الانسان تأثيرا هو صاحب الأثر الأكبر فى تكوين هذا الذكاء . وفى هذا الكتاب أيضا شرح تين نظرياته ، بل لعله فى هذا الكتاب وحده قد قرر هذه النظريات على صورة كاملة ظهر فيها مذهبه الجبرى بكل قوته ووضوحه .

ظهر لتين كثير غير الكتب التى ذكرنا ؛ منها كتابه (مذكرات عن انجلترا) وكتابه الآخر (مذكرات عن باريس) . واذا هو كان فى الكتاب الأول كاتبا ومحللا على طريقته ، فهو قد امتاز فى الكتاب الثانى بالنكتة المقذعة وبرقة فى العبارة مع دقة فى الملاحظة ومرارة فى التهكم بالناس وبالحياة جعلت كثيرين يتمنون لو أنه وجه نصيبا كبيرا من عنايته الى هذا النوع من الكتابة .

وتزوج تين فى سنة ١٨٦٨ فلم يغير زواجه شيئا من حياة الجد والعمل التى كان يحياها . على أنه منذ سنة ١٨٧٠ ، وعلى أثر الحرب الفرنسية الألمانية ، حز فى نفسه ألم هزيمة بلاده وتوجه بكله يريد أن يقف على أسباب ضعفها . وكان هذا هو الدافع له الى وضع كتابه الأكبر (أصول فرنسا الحديثة) الذى عمل فيه منذ سنة ١٨٧٠ الى أن مات فى سنة ١٨٩٣ والذى اضطر من أجله أن يتخلى عن مهنة التدريس منذ سنة ١٨٨٤ لينقطع له انقطاعا تاما . ويبدأ هذا الكتاب بجزأين عن العصر القديم ، أى العصر السابق لما قبل الثورة الفرنسوية . أما تاريخ الثورة فيتناول ستة أجزاء ، ويتناول التاريخ الحديث ثلاثة أجزاء يعقبها جزء واحد وضعه تين كفهرس للكتاب كله . ولقد كان فى عزمه أن يضع ، فى الجزء الذى لم يمهله القدر ليتمه ، الصورة الصالحة لنظام الأسرة ونظام الجمعية فى فرنسا كما يريد العلم لهذا النظام أن يكون ، لكنه توفى فى الخامس من شهر مارس سنة ١٨٩٣ وما يزال فى الخامسة والستين من عمره .

وكتابه (أصول فرنسا الحديثة) هو عمله الخالد على التاريخ . ولقد سار فيه على نفس الطريقة التى سار عليها فى سائر كتبه . وان يكن الدافع الذى دفعه لكتابته ، ألا وهو حب وطنه حبا أذكته هزيمة حرب السبعين وزادته ضراما ، قد جعله فى كثير من الأحيان يناصر حزبا على حزب وطائفة على طائفة من الأحزاب والطوائف المختلفة التى حكمت فرنسا منذ ذلك العصر القديم الذى كتب هو عنه .

وهو على كراهيته للاستبداد فى كل مظاهره وعلى تقديسه

للحرية فى مختلف صورها . لم يكن يؤمن بالديمقراطية ولا بالمساواة المطلقة التي تترتب عليها . بل كان يحسب فيها هى أيضا لونا من استبداد الجماهير الحمقاء بحكم البلاد لا تقل سوءا عن استبداد الملوك الظلمة الغاشمين . فكلا الاستبدادين قائم على الشهوة العمياء التى تبتغى المصالح الذاتية فى شره وسخف والتى لا تفهم المعانى العليا التى يتطلع اليها العلم ولا السنين الثابتة التى تستنبطها الفلسفة القائمة على هذا العلم .

ويذكر كثيرون أنه كان فى هذا ، كما كان فى فلسفته ، متأثرا بالفلسفة الانكليزية وبالحياة السياسية الانكليزية ، ولعله كان يميل الى شىء من الاستقراطية بطبيعة تفكيره ، ولذلك كان كتاب عصره جميعا انما يذكرونه باسم (مسيو تين) ، وذلك امتياز لم يعرف الا له ولاثنين أو ثلاثة من كبار الكتاب معه . وربما كان صدقا ما يقوله مسيو هريو وزير معارف فرنسا فى خطابه عن تين من أنه لو كان انكليزيا وعاش فى انجلترا لكان حتما أن يلقب وأن يكون (السير هيبوليت) . وهذه النزعة هى التى أدت به ليكتب رسالة مطولة عن الانتخاب المباشر يطعن فيها مر الطعن على هذا النظام ، ويرى من السخرية أمر السخرية أن يتساوى فى الرأى عن طريقة حكم البلاد ماسح الأحذية وعميد الكليات ومديرو الجامعات كما يرى حماقة أن يحكم نصف الأمة زائدا واحدا نصفها الآخر ناقصا واحدا ، أو أن يحكم سوادها الطائش المخدوع بترهات المغررين والمضللين صفوة أبنائها وخلاصة ذوى الرأى والعلم فيها حكما أقل أثره أن يبعث التقزز الى نفوس الصفوة ويضعف من

حب كثير منهم للعمل ويضيع بذلك جهودا أقلها خير ألف مرة من جهود السواد وقادته .

* * *

وعاش تين ومات ومنطقه منطقه ورأيه لم يتغير . وكأنما كان مصداقا حيا لهذه الكلمة : « النبوغ فكرة فى الصبا تنفذ فى الرجولة » . فمنذ كان تين فى مدرسة المعلمين الى أن مات ، كانت غايته فى الحياة واحدة وطريقته الى هذه الغاية واحدة : كانت غايته الحقيقية وكانت طريقه الى الحقيقة العلم ، حقيقة لا هوادة فيها وعلم كذلك لا هوادة فيه . ولهذا كان جديرا حقا بالخلود . واذا كان كثير من نظرياته قد نقض بعد حياته ، فهو فى ذلك ليس الا انسانا عظيما . هو قد خطا بالعالم فى عصره الخطوة التى كان يجب أن يخطوها العالم . فكأنما كان رسولا لتمام هذه الخطوة . أما وقد أتم رسالته وآن للعالم أن يخطو خطوة أخرى ، فان ذلك لن يغض من فضله ولن يغمطه شيئا من حقه ، بل هو على العكس من ذلك يزيدنا قدرا له واعجابا به . وكفى أن يسأل انسان نفسه : ماذا يكون العلم وماذا تكون الفلسفة لو أن تين لم يوجد ؟ ولن يستطيع انسان أن يجيب على هذا الا بالاعتراف لتين بفضل عظيم . وهذا الفضل هو الذى جعل فرنسا تحتفل بعيده وجعل الفرنسيين يفكرون فى اقامة تمثال له فى باريس وتمثال آخر نصفى فى مدرسة المعلمين .

وليم شكسبير

« ما حاجة شكسبير الى أحجار فوق أحجار يقيمها الناس مدى قرن كامل لتأوى اليها رفاته المجيدة ؟ ما حاجته أن تدفن بقايا المقدسة تحت هرم يصعد حتى يصل الى عنان السماء ؟ يا ابن الذكرى العزيز ووارث المجد العظيم ! ماذا يعنيك من هذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك وقد أقمت لنفسك من اعجابنا وعجبنا تمثالا لا يبلى » .

((ملتن))

« تمثالا لشكسبير ! ولماذا ! ان التمثال الذى أقامه لنفسه على عماد هو انكلترا كلها خير له من كل تمثال . ليس شكسبير بحاجة الى هرم وله مؤلفاته . وماذا يمكن أن يخلد الرخام منه ؟ وماذا يستطيع البرنز أن يقيم حيث يقيم المجد ؟ ان الأحجار كلها والفنانين الذين ينحتونها يضيعون جهدهم عبثا . فالعبقرية هى العبقرية من غير حاجة اليهم . ولو اجتمعت الأحجار كلها ، أفتراها تكبر هذا الرجل اصبعا ؟ وأى قوس أبقى من هذا القوس : قصة الشتاء — العاصفة — زوجات وندسور المرحات — يوليوس قيصر — كريولان . وأى أثر أعظم من لير ، وأشد تجهما من تاجر البندقية ، وأبهر من روميو وجوليت ، وأبهى من ريكاردوس الثالث ؟ وأى بدر يلقى على هذا البناء ضياء أعجب من حلم ليلة الشتاء ؟ وأى عاصمة ولو كانت لندرة تثير حوله ضجة هائلة كما تثير روح مكبث

الهائلة الضجيج ؟ وأى حلية من خشب الزان أو البلوط تبقى بقاء أو تللو ؟ وأى نحاس أصلب من نحاس هملت ؟ كلا : لن يوازى بناء من الحجر أو الصخر أو الحديد هذا الروح • روح العبقرية العميق • روح الله يتجلى به على لسان الانسان • ورأس فيه فكرة هو القمة • أما أكداس الأحجار فجهود ضائعة • وأى بناء يساوى فكرة ؟ انبابل لدون ايزاس ، وخوفولأصغر من هوميروس ، والكوليزيم لأقل من جوفنال ، وقصر اشبيلية قزم الى جانب سرفانتس ، وكنيسة القديس بطرس فى روما لا توازى كعب دانت • فكيف تستطيعون وان جهدتم أن تقيموا برجا فى رفعة هذا الاسم : شكسبير ؟ » •

« فكتور هيجو »

وصدق ملتون ، وصدق فكتور هيجو • فأنت لا تعنى اذ تذكر شكسبير أأقيمت له تماثيل أم رفعت له نصب واهرام • وأنت لا تذكر الى جانب اسمه ما تذكره الى جانب اسم نابليون من عماد فندوم أو قبر الانفاليد • بل أنت اذ تذكر شكسبير تنسى كل ما فى العالم غير ما خلف شكسبير ، غير هذه التركة الخالدة من الشعر السامى فوق كل مراتب الشعر ، والذى يزداد سموا كلما ازددت فيه امعانا ، حتى لتنسى الى جانبه كل شعر وكل موسيقى وكل فن لأنك ترى فيه عالما كاملا من الأشياء والناس والآلهة خلقه خيال يندمج فيه كل خيال ، وفن يتلاشى أمامه كل فن • ولتنسى الى جانبه الأعجاب فى الحياة بأى شىء سواه • هذا شكسبير لم يكن ملكا ولم يكن غازيا ولم يكن عظيما فى قومه ، بل كان ككل نابغة وكل عبقرى رسولا تؤذيه رسالته حتى لتحرقه • ومن هذا

الأذى ، ومن هـذا الاحتراق تنعطر الحياة بأريج تلك الرسـالة وتزداد بهذه الأريج شـعورا كلما ازداد عطر الاحتراق والأذى ذيوعا وانتشارا .

نعم ! لم يكن شكسبير ملكا ولا غازيا ولا عظيما فى قومه . بل كان مؤلف روايات وكان مهرجا . كان عمله فى الحياة أن يبعث السرور والنشوة الى نفس الجمهور ثم لا يناله أكثر الأحيان من هذا الجمهور الذى أضحكه غير السخط والازدراء . ومات شكسبير وانطوى دور المهرج فظل أهل عصره ينكرون عليه مقامه كمؤلف وينعتونه بأنه لم يحدث جديدا وبأنه غراب اكتسى بريش الطيور الجميلة فلم يصنع أكثر من أن سرق ما كتب غيره . لكن الزمن الدائم الكر والذى يصهر تراث الماضى فيستخلص جوهره من خبثه ، لم يجد فى شكسبير الا جوهرا يشع فى المستقبل الى قرون وقرون بعده ، فلا تزداد الا تطلعا اليه واعجابا به . وهذا الزمن وجد فى الهام شكسبير الشعرى علما وحكمة ، فنفى عنه حسد أهل عصره وأقام له من المجد ما عبر عن بعضه ملتن شاعر انكلترا الأول بعد شكسبير ، وهيجو مقـدم شعراء فرنسـا ومترجم شكسبير الى الفرنسية .

واذا لم يكن شكسبير عظيما فى قومه فليس فى تاريخ حياته ما يقف النظر عنده الا أن يكون خلقه الثائر ونفسه المتمردة على الخلق وعلى الفضيلة .

ولد فى ستراتفورد — أن — ايفن فى ٢٣ ابريل سنة ١٥٦٤ اى فى عصر الملكة اليصـابات أحد عصـور انكلترا الزاهرة ، وفى القرن السادس عشر عقب الانقـلاب الدينى العظيم الذى

قام به مارتن لوثر وتأثرت به انكلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها . وكان أبوه جون شكسبير محترما فى قومه لأنه كان يملك ثروة تغنيه عن غيره ، جاءه بعضها من كده وبعضها من زوجه . وقد اختلف الرواة فى الصناعة التى كان يزاولها جون بين أنه كان تاجرا أو مزارعا أو جزارا . ويذهب كثيرون الى أنه كان يزاول هذه المهن جميعا كما يفعل الكثيرون من أهل القرى والبلاد الصغيرة . ولمكانته من قومه انتخب فى مجلس بلدته القروى ونيطت به أعمال قاضى المصالحات . وفى سنة ١٥٧٧ ساءت حال جون شكسبير المالية حين كان ابنه وليم ما يزال ، وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، فى بداءة تعليمه . فاضطر للاستعانة به فى كدح الحياة . وجعل الفتى — على قول بعض مترجميه — « يقتل العجول لأبيه ويلقى أثناء يقوم بعمله خطبا رائعة الأسلوب على سامعيه » . وكذلك انقطع عن الدرس وشغل بهم الحياة حتى تزوج فى الثامنة عشرة من عمره من أناهثواى ورزق منها فى ٢٦ مايو سنة ١٥٨٢ فتاة أسماها سوزان وتوأمين غلامين فى فبراير سنة ١٥٨٥ .

على أن هموم الحياة ومشاغل الاسرة لم تغير شيئا من خلقه المضطرب الثائر . فقد أولع منذ صباه بالشراب حتى كان فيه مفخرة قريته ، كما أنه كان لا يتعفف عن سرقة الصيد من أملاك كبار الملاك وبخاصة من أملاك السير توماس لوس كبير قضاة قصبته . وكم خضع من أجل ذلك لهوان الضرب ومذلة العقوبة . وفيما هو يوما يجارى أهل قرية مجاورة فى الشراب سكر حتى لم يستطع العود الى أهله . فلما أصبح ذكر حاله وما آل اليه أبوه الذى أدخل السجن بسبب ديونه ففضل هجرة بلد أصبح لا احترام له

بين أهله برغم ماكان يشعربه فى نفسه من تفوق على أقرانه . أن كان قد بدأ يتغنى بشعر ينظمه . فهجر ستراتفورد الى لندرة وهو لا يدرى ما يستطيع أن يفعل فيها .

ودخل العاصمة العظيمة خالى الوفاض يضنيه الضنك والعوز فأسرع الى حرفة من أحقر الحرف . ذلك أنه كان ينتظر بخيول المتفرجين على أبواب المسارح فاذا انقضت ساعات التشميل نفحوا هذا الخادم بما تجود به أنفسهم . ولعل لهذه الحرفة الوضيعة حظا غير قليل فيما يدين به العالم اليوم لشكسبير من رواياته الخالدة . فمن سبيل هذه الحرفة استطاع شكسبير أن يعرف بعض الممثلين وأن يكسب عطفهم وأن يلتحق بعد ذلك باحدى الفرق فى أدوار تافهة . لكنها كانت سلمه الى أدوار خير منها . ومع انه لم يكن يوما ممثلا بارعا ولم يصل الى النبوغ فى التمثيل الا ما كان من نبوغه فى دور طيف والد هملت فان خشبة المسرح هى التى دفعته الى كتابة روايات تشهد الأجيال المتعاقبة تمثيلها معجبة مقدسة .

وكما تدهشك أن تكون حرفة شكسبير الحقيرة سبب هذا المجد العالمى فقد يدهشك كذلك أن تعلم أن ظرفا آخر لا يد له فيه قد عاون الشاعر فى عمله . ذلك أن اضطرابات العاصمة الانكليزية أدت الى اقفال مسارحها ما بين ١٥٩٢ و ١٥٩٤ . واذ كان شكسبير قد بدأ يولع بالنظم والتأليف ووجد من معونة بعض ذوى النفوذ ما أغناه عن اتباع الفرق التمثيلية فى تجولها ، فقد ظل مدى هاتين السنتين مكبا على دراسة اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية ، مكبا على النظم والتأليف . وخلالهما استشف مظاهر نبوغه وعبقريته وميوله التمثيلية . فكتب فى ابريل سنة ١٥٩٣ قصيدة فينس وادونيس

Venus and Adonis كما كتب فى مايو سنة ١٥٩٣ رواية لوكريس اهداها الى لورد سوذامبتن . ويقال ان اللورد شجعه على الاستمرار فى عمله وأعانه بألف جنيه دفعها له فمكنه من زيارة شمال ايطاليا واتقان لغتها ، التى كان قد بدأ يدرسها فى لندرة ، والوقوف على كثير من الأساطير الايطالية التى استعان بها فى رواياته . وفى أثناء زيارة ايطاليا بدأ يكتب مقطوعاته التى نشرت بعد ذيوع اسمه والتى أهدى أكثرها الى لورد سوذامبتون كما جعل يؤلف للمسرح روايات أمل فى تمثيلها بعد انقضاء الاضطرابات وعود الحياة الهادئة الى عاصمة بلاده .

وفى صيف سنة ١٥٩٤ فتحت دار التمثيل أبوابها وعاد شكسبير الى المسرح وبدأ يقدم رواياته لتمثل . ولم تكن قوة هذه الروايات لتخفى على أحد وبخاصة أنها كانت تمثل حياة ذلك العصر وأخلاقه أدق تمثيل . لذلك لم يلبث شكسبير أن حاز من ذيوع الصيت ما خلع عليه اسم الممثل البارع وان كانت براعته الحقة فى تواليفه . وكان من أثر ذلك أن شارك شكسبير بنصيب فى أرباح مسرح (الجلوب) الذى كان يشتغل فيه ، فاستطاع بذلك أن يشترى فى بلدة ستراتفورد دورا وضياعا وأن يعيش فى رغد ونعمة وأن يعيد أباه وأهله الى حب الحياة . وكما يسرت شهرة شكسبير له سبل العيش فقد فتحت أمامه أبواب العظماء وأنالته عطف الأسرة المالكة ورفعت بذلك من مقام التمثيل والممثلين الذين كانوا قبل ذلك بمكان من الضعة والحقارة يشعر الانسان به حين يقرأ من مقطوعات شكسبير ما كتبه أثناء مقامه بايطاليا وما فيه من برم بالحياة وألم لازدراء الناس مهنة لم يكن له كى يكسب العيش

مفر من احترافها . وزاد المهنة رفعة أن مثل شكسبير فى حضرة الملكة اليزابيث وأن نال من عطفها . وان يك قد تنكر بعد ذلك لها حتى لم تذرف عليها عينه دمعة عند موتها ولم تتحرك شاعريته بعبارة ألم لرثائها .

وبقى شكسبير يؤلف فى السنة الواحدة الرواية والروايتين ويمثلها مع زملائه الذين كانوا واياه على خير وفاق . وقد أثار تاريخ تأليفه كل رواية من رواياته مباحث شتى حتى وضع (اومندمالونى) كتابا سماه « محاولة لتحقيق الترتيب الذى كتبت به روايات شكسبير »

(An attempt to ascertain the order in which the plays of Shakespeare were written).

كذلك أنكر بعض النقاد نسبة بعض الروايات له كما أنكر بعضهم وجوده .

وفى سنة ١٦١٠ اعتزل المسرح وترك لندرة الى ستراتفورد حيث عاش عيشا هادئا مكتفيا بما جمعه من مال مستمرا مع ذلك فى كتابة رواياته . ويذهب بعض مؤرخيه الى أنه كان مع ذلك يعود الى لندرة الحين بعد الحين ويشترك فى تمثيل بعض الروايات حتى احترق مسرح الجلوب فى ٢٩ يونيو سنة ١٦١٣ أثناء تمثيل رواية هنرى الثامن . هنا لك انسحب شكسبير الى قريته ولم تبق له عناية بغير رفاهته ، فعاش عيش ذوى اليسار وطلق التمثيل والتأليف جميعا وجعل يقرض الناس بالفائدة مما أدهش كثيرين ممن كتبوا عنه . قال تين : « خاتمة غريبة تبدو لأول نظرة خاتمة تاجر لا خاتمة شاعر . أفنعزوها الى هذه الغريزة الانكليزية التى ترى السعادة

فى حياة رجل الريف صاحب الملك حسن الايراد كريم الأصل الحاصل على أسباب الرغد المطمئن بين الناس الى مكانته واحترامه والى سلطته العائلية ومكانته من قومه ؟ أم أن شكسبير كان كفولتير رجلا موزونا وان يك خيالى الذهن يحتفظ بقوة حكمه خلال نشاط شاعريته ، حذرا لتشككه مقتصدا لحاجته الى الاستقلال عن الناس . قديرا ، بعد أن يحيط بكل ما مر بخاطر الانسان ، أن يرى مع كانديد أن الخير كل الخير فى أن يزرع حديقته ؟ أما أنا فأميل لافتراض يدل عليه رأسه المليء المتين ، ذلك أنه لكثرة ما أنتج خياله المتموج قد نجا كما نجا جيتى من مخاطر الخيال المتموج . وانه فى تصويره الشهوات قد بلغ ما بلغه جيتى من تخفيف حكم الشهوات اياه . وان الاندفاع لم يحدث فى سلوكه انفجارا لانه كان يجد فى الشعر مصرفا لاندفاعه . وان رواياته حفظت عليه حياته لأنه ألم من خلالها بكل ما فى الحياة الانسانية من هوس وتعس ، فاستطاع أن يجلس بينها وعلى ثغره ابتسامة مطمئنة مكتئبة ، وأن يسمع ليسرى عن نفسه هذه الموسيقى الاثيرية التى أبدعها فى رواياته . وأريد أن أفترض أخيرا انه كان فى جسمه ، مثله فى سائر تكوينه ، أحد رجال جيله العظيم ، وعصره العظيم ، وان متانة العضل كانت عنده مثلها عند رابليه وتسيان وميكلنج وربنس ، توازى حساسية الأعصاب . وان الماكينة الانسانية كانت يومئذ أقوى بناء وأحسن بلاء فكانت تستطيع أن تقاوم عصف الشهوات واندفاعات الهوى . وان النفس والجسم كانا ما يزالان متوازنين فكان النبوغ يومئذ زهرا وثمرة ، ولم يكن مثلما هو اليوم مرضا » .

* * *

قد يكون التصوير الذى فرضه تين لحياة شكسبير صحيحا • لكنه لا يزيد على انه فرض فى رأى تين نفسه • على انك اذا أردت أن تقف على أسرار شعر شكسبير ورواياته فقد وجبت دراسة ذلك كله دراسة لا يتسع المقام هنا لأكثر من الالمام بشىء منها الماما يسيرا •

نشأ شكسبير ، كما قدمنا ، فى العصر الذى عقب الانقلاب الدينى الذى قام به مارتن لوثر وتأثرت به انكلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها • وكان الذين أخذوا بالمذهب الجديد ما يزالون متأثرين قبل كل شىء بأساسه وهو حرية التفكير • وكان انهيار قيود الكثلكة هو البادى أمام الأنظار • ولم تكن بعد قد تركزت فى النفوس قواعد المذهب الجديد تركزا ثبت الايمان بها تثبيتا يحول دون تحطيمها • كما لم تكن خلقت حول المذهب الجديد هـذه الأوهام المحسنة التى تهون على الناس عبء الحياة فيخضعون لها طائعين — لذلك كله كانت جماعة ذلك العصر فى انكلترا تسيغ الالحاد ولا تنزعج لاعلانه ولا تضطرب أمام ما يرتبه أصحابه عليه من تقشف أحيانا واستهتار واباحة أخرى وشك ثالثة ، واعتدال فى الحياة وفى المتاع بها اعتدالا يبقى عليها ويطيل • ولعل هذه الظاهرة كانت ذات أثر فيما رأينا من سلوك شكسبير ومن استباحته سرقة الصيد • وهى لا ريب كانت قوية الأثر فى رواياته • فأنت ترى فيها من التجديف ومن الغواية ، مصبوبين فى أجمل قالب وأبهاه ، ما لا يحتمله عصر غير عصره الذى كان مجاورا للعصور الوسطى والذى لم يتخلص من خرافاتها وان أباح لنفسه هدم هذه الخافات • وكما أثر العصر فى شكسبير من ناحية حرية تفكيره فقد أثرت فيه

هذه الخرافات من ايمان بالسحر وبالجن حتى لترى كثيرا منها فى رواياته . ثم ان هذا العصر الطليق المجاور للعصور الوسطى كان عصر اضطرابات ومجازر . وكان القتل أمرا شائعا فيه حتى لترى الرجل تقطع عنقه لغير سبب الا أنه أنكر على الملك سلطانه الدينى أو أنه أغضب رجلا ذا سلطان باشارة أو بكلمة . أضف الى ذلك ذيوع عادة المبارزة وانتهائها فى أحيان كثيرة الى قتل أحد المتبارزين . وهذا الاستهتار بالحياة الانسانية هو سر ما نرى فى أكثر روايات شكسبير من مجازر فظيعة تنتهى أغلب الأمر الى موت أشخاص الرواية جميعا . ثم ان التمثيل على النحو الذى نعرفه اليوم كان فى ذلك العصر ما يزال فى دور نشأته حتى لم يكن معروفا فى كثير من البلاد ومن بينها فرنسا . فلم تكن قد تقررت له قواعد كالتى تقررت بعد ذلك من وحدة الزمن والمكان والحادث . ولذلك أنت ترى فى شكسبير مناظر مختلفة فى الفصل الواحد قد لا يكون بينها أية صلة . وقد يفصل بين المنظر والمنظر مئات الأميال . ثم انك ترى كذلك فى هذه الروايات خلطا عجيبا من أحط ما تنزل اليه الجماعة فى حياتها العادية التافهة . ورفعة لا تدانيها رفعة فى سمو الخيال وتصوير فعل الشهوات فى النفوس .

وهذه الظواهر التى تجدها سائدة فى دول أوربا كلها فى ذلك العصر كانت أكثر وضوحا فى انكلترا . ومرجع ذلك أن الخلق الانكليزى بطبيعته خلق ثائر طموح للحرية يفتديها بالدماء . وكان كذلك فى تلك العصور الماضية أكثر مما هو اليوم . ولذلك كانت انكلترا أسرع من غيرها الى الأخذ بالمذهب الدينى الجديد . ولذلك كانت مظاهر القسوة وما تلده من قتل وتعذيب أكثر تفشيا بين

هؤلاء السكسونيين . وكان من شأن السحر عندهم مالا تعجب بعده لطيف هملت ولا لساحرات مكبث . ثم كان من استهتار الناس بالحياة ما ترى آثاره فى شعر شكسبير مما يجعل المتقشفة والمتصوفة أشد على الحياة حرصا من أهل هذا الزمن . فليس عجيبا اذا هذا الذى نرى فى شعر شكسبير من مجازر وخرافات وان خيل لبعضهم بادىء الأمر أن فيه شيئا من العجب يدعو الى عدم تصديقه .

واذ كان علم شكسبير راجعا الى ملاحظة الطبيعة أكثر من رجوعه الى دراسة الكتب ، وكانت معلوماته التى استند اليها فى تأليف رواياته لا تزيد عن معارف سطحية فى التاريخ والفلسفة والاجتماع ، فان كثيرا من رواياته لا تعتمد على أكثر من أساطير سمعها أو قرأها فى الكتب التى يتناولها الناس جميعا وفى مقدمتها تاريخ العظماء لبلوتارك . فرواية هملت تعتمد على أسطورة دانمركية ينكرها أكثر المؤرخين . ورواية روميو وجولييت أحدوثة ايطالية يغلب أن يكون شكسبير قد سمعها أثناء سياحاته فى شمال ايطاليا أو قرأها ولم يستتمها فى بعض الكتب . ذلك أن هذه الأحدوثة تنتهى بأن روميو لما بلغه موت جولييت حضر الى قبرها وبلغ من ألمه أن طعن نفسه بالخنجر ، لما كانت جولييت لم تتناول السم بل تناولت مخدرا فقد استيقظت وروميو ما يزال فى النزع فبث كل منهما لصاحبه لاعج غرامه . وطعنت الفتاة نفسها بالخنجر الذى زج به محبها فى أعماق قلبه . ولم يشر شكسبير الى هذه الواقعة الجديرة بأن تجرى على أوتار ربة شعره بأرق أنغام الحب والألم فدل بذلك على أنه لم يعرفها .

هذا التحليل للمحيطات التى وجد فيها شكسبير قد يفسر

طريقة وضعه رواياته وقد يهدى الى أسرار ما ترى فيها اليوم مما نعتبره عند عدم وقوفنا على هذه الحيطات خرافة غير لائقة بعبقرية فذة كعبقرية شكسبير . لكنه مع ذلك لا يدلنا على شيء من سر عظمته ولا يهدينا الى كثير من سر شعره . والحق أن البيئة والزمن وحدهما لا يفسران نبوغ النابغة ولا عبقرية الشاعر وان بينا مراميه وكشفا عن أغراضه . فأما العبقرية فلازمة ذاتية وهبة قدسية تنفح بها الطبيعة شخصا من الناس على حساب مواهب أخرى . وعبقرية شكسبير كانت فى ملاحظته وفى خياله وفى شاعريته وكانت فى ثقوب نظره ثقوبا يستطيع معه أن يرى دخيلة النفس الانسانية وأن يصفها وصفا حسبه الناس بادىء الأمر غواية شاعر ، ثم أثبت العلم أنه الحقيقة العلمية التى لا تقبل نزاعا ولا جدلا .

وكانت مظاهر الطبيعة فى أرق صورها وأجملها أول ما فجأ خيال شكسبير . فأنت لا تقرأ له رواية ولا مقطوعة الا وجدت من وصف هذه المظاهر وصفا موسيقيا بديعا يدلك على مبلغ تأثيرها فى أعصاب هذا الشاعر الدقيق الحس تأثيرا يجعله يندفع الى الاعجاب بالجمال وتقديسه الى أقصى حدود الاعجاب والتقديس ، فيظهر أثر ذلك فى شعره ، ويظهر فى رعشة موسيقية قوية رقيقة فى قوتها ، متجاوبة ثائرة فى تجاوبها ، تهز نفسك هزا وتسحرك عما حولك وتصل بك حتى ترى أمام خيالك مارسمه خيال شكسبير ماثلا واضحا . وقد بلغ من تأثير هذه الصورة فى نفس الشاعر العظيم أن حلت منه محل التفكير حتى فى شأن الحياة الانسانية . فالرجل الغاضب كالطبيعة الثائرة . وما يترتب على ثورة الطبيعة من آثار هو بعينه عند شكسبير ما يترتب على غضب الانسان من

آثار . والطبيعة فى سيرتها العادية تافهة حتى اذا ملكتها الثورة أبرقت وأرعدت وعصفت وأهلكت الحرث والنسل . كذلك الانسان فى سيرته العادية تافه حتى اذا ملكته الشهوة أسرف فى الحب أو فى البغض أوفى الايثار أوفى التشفى والانتقام . والطبيعة خاضعة لظروف لا سلطان لها عليهـا ، والانسان خاضع مثلها لظروف لا سلطان له عليها . وكما تسيِّر الغرائز الطبيعة تسيِّر الغرائز الانسان . فكل صورة للطبيعة لها مثلها فى الانسان . ولذلك كان أسلوب شكسبير وكان خياله خيالا تصويريا فى وصفه وفى احساسه وفى شهواته وفى تفكيره . اقرأ مكبث حين يصف آثار جريمته وكيف لا تستطيع البحار أن تمحو ما خلفت من دم على يديه . واقرأ هملت فى ثورته على أمه وفى سائر هذياناته الحكيمة . بل اقرأ قيصر واقرأ فى قيصر خطاب انطونى . اقرأ ما شئت من شكسبير تر هذا التقديس لصور الطبيعة وهذا التفكير المصوغ فى قالب تلك الصور .

وكما يندفع شكسبير الى تقديس مظاهر الطبيعة ويتخذ من صورها صور تفكيره ، فهو لا يرى فى غرائز الحياة غير الاندفاع لا يقوم على أساس من روية ولا تفكير ، وانما يقوم على الغرائز الانسانية البسيطة هى التى توجهه وتصرفه . فالحب عنده لا يحتاج الى تحضير ولا سعى من جانب الرجل لكسب المرأة بل هو اندفاع من جانب شابين كل منهما نحو صاحبه . اندفاع رقيق كل الرقة قوى كل القوة . اندفاع شعرى غذب يتغنى فيه كل من المحبين باهازيج الهوى على نغمة موسيقية حلوة كانما كوبيدون اذ رمى عن قوسه فأقصد القلب رمى مع القوس الوتر ، فأخرج هذا الوتر

من أعصاب كل المحبين أنات وآمالا وأحلاما لذيذة ويأسا فاجعا لا يعرف الشعر فى كل الأمم شيئا منه مثل ما عرف على لسان شكسبير . استمع الى أنغام أوفليا فى حبها هملت وتوجعاتها حين اليأس الذى أدى بها الى الموت . واسمع هذا التجاوب الحلو بين روميو وجولييت يجعل من الحب جنة نعيم ليس بعدها جنة نعيم . ثم اقرأ ثوران الغيرة وضجيجها والتهابها فى نفس أو تللو مما لا مثيل له فى أقوى ما تصل اليه موسيقى فاجنر . وخيال شكسبير يصل من ذلك فى بعض الأحايين الى حدود يعجز أقوى خيال عن تصورها .

وكما تحرك الغرائز المحبين تحرك الناس جميعا فى كل تجارة الحياة ، فليس الملك على خلاف الناس جميعا لأنه ملك ، بل هو يحب أهله وأبناءه ويدللهم ما دام بعيدا عن مباشرة شؤون الدولة، وهو فى هذه الشئون يتأثر بغرائز الانسان وشهواته كما يتأثر أى انسان سواه . والرجل السيىء الذى خلقه شكسبير فى شخص ياجو وفى شخص شيلوك تاجر البندقية ينقاد للغرائز الانسانية انقياد الوحش أوتللو والناقم هملت وان كانت صورة هذه الغرائز تختلف من شخص الى شخص حسب مزاجه . وهذا الاختلاف هو الذى جعل من أبطال شكسبير أشخاصا ذوى حياة انسانية صحيحة تشعر واياها اذ ترى تمثيل الروايات على المسرح فى حين انك اذ ترى روايات راسين وكورنى مثلا ، وهما من أكابر كتاب فرنسا فى القرن السابع عشر ، تحس المؤلف هو الذى يتكلم وترى أفكارا تروح وتجىء على المسرح كل وظيفة الممثل أن يقوم بالقاء

الألفاظ التى تؤديها من غير أن تظهر له شخصية حية تنسيك أنه ممثل وتنسيك أنه يقوم بدور تمثيلى .

ولقد أقر النقاد جميعا لشكسبير بهذه الميزة وان رأى بعضهم أنه يسرف فى تصوير أشخاصه اسرافا يجاوز المعقول . ناسيا أن هؤلاء الأشخاص هم من عصر شكسبير وأنهم من أبناء خياله الشعرى المتوقد . وكما اتهم بالأسراف ظلما فى هذا فقد اتهم بتهمة أخرى أثبت العلم خطأ اتهامه بها . فقد ذهب بعضهم فى وقت من الأوقات الى القـول بأن شكسبير يخالف الطبيعة والمعقول فيما يقرره لبعض أشخاص من تصرفات . من ذلك مثلا أنك ترى مكبث يرتكب جريمة القتل فتتلوث يداه بالدماء . ثم هو مع ذلك يظهر فى أماكن لايأمن أن يراه الناس فيها ويصيح بأن مياه البحار لاتغسل جريمته . وعلى الرغم من الحاح لادى مكبث فانه يظل يتحدث عن جريمته ولا يدارى شيئا من آثارها . فهذا فى رأى النقاد الذين أشرنا اليهم تصرف غير معقول . أليس أول ما يصنع المجرم أن يعمل ليـدارى جريمته ؟ لكن العلم الجنائى أثبت أن شكسبير على حق وأن الطبيعة الانسانية تدفع بالمجرم الى مكان جريمته وتكرهه أكثر الأحايين على الاعتراف بها .

وليس مثل مكبث الا واحدا من أمثال كثيرة فى ثقوب نظر شكسبير واستشفافه حقيقة الغريزة الانسانية .

* * *

هذا بعض ما تأثر به شكسبير فى شعره . وهو قليل من كثير يستحق العناية به وبحثه . والآن أخشى أن أكون قد أطلت فى حديث لم أكن أقصد الى الاطالة فيه وان يكن القول فى شكسبير

قصيرا وان طال . فلنجتزىء بما تقدم . وبأن شكسبير بعد أن أقام فى ستراتفورد مكتفيا من العيش بطمأنينته ونعمته ، ظل حتى سنة ١٦١٦ ثم مرض فكتب وصيته بما يملك الى ابنته سوزان غير تارك لزوجه الا قليلا . وفى هذه السنة مات ودفن من غير كبير احتفال ، الى أن اضطر العالم بعد أجيال ليقيم له من المجد ما يبقى على الأجيال حتى آخر الزمان .

obeikandl.com

برسى بيش شلى

— ١ —

ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ . فى صحو جو جميل ، كان لورد بيرون . والشاعر لى هنت . والبحار ترلونى . وقوفا فوق رمال الشاطىء الايطالى على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف الى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الايطاليين ، وكلهم محدق ببصره الى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ صب عليها وبالملح ألقى فيها ويفوح منها ريح اللحم الانسانى . وكلهم واجم مخلوع القلب ذاهب فى تيهاء الهلع والذهول . وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباعا يهز نفوسهم هزا فلا يزدادون ازاءه الا وجوما وذهولا ، وتندى عين بعضهم بالدمع ثم تذرفه أن لا تستطيع حبسه . ويبلغ الهلع والروع أثناء ذلك من لورد بيرون مبلغهما فيلقى بملابسه على الرمل وبنفسه فى الموج يسبح خلاله حتى يصل الى زورقه « البوليفار » . ويحدق ترلونى بالعظام تحترق وباللحم تذيبه النار ، ثم يرى القلب مع ذلك كبيرا كبيرا ، فما يزال منه قلب كامل لم يذب ولم يحترق ، فيجذب هذه البقية المقدسة بيده . وتبدأ النار بعد ذلك تخبو رويدا رويدا تاركة وراءها حفنة من تراب هى كل ما بقى من رفات قيثارة الشعر الانكليزى شلى . ويحمل ترلونى الحفنة الى الأرملة البائسة مارى شلى لتتولى ويتولى هوولى هنت معها حملها الى مقابر البروتستانت

فى روما كى تستقر هناك فى أرض غريبة عن ثرى الوطن ، ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها الى جانب رفات عزيزة محبوبة هى رفات وليم شلى ابن الشاعر البكر من زوجه مارى . ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية الى روما ، ولم يكن شلى قد بلغ الى يوم وفاته فى الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره ، وان كان قد خلف من شعره على الحياة ما لا يزال فخر الشعر الانكليزى عذوبة وموسيقى يأخذان بالنفس ويملكان على المرء حسه ولبه ويبعثان الى كل ما ينشدانه ويترنمان به الحياة والخلد ، سواء أكان ما ينشدانه ويترنمان به انسانا أم طيرا أم حيوانا أم جمادا أم مجرد خيال لا وجود فى الحياة له . ذلك بأن الحياة كانت تسرى فى كل ما لامس نفس شلى لتبقى قائمة به قرونا ودهورا بعد موت باعثها . وكذلك كانت فجيعة الشعر فى هذا الشاب الذى خلف الحياة منذ كان على أعتاب الحياة مما يزيد ذكراه قوة وجلالا ، وان كانت هذه الذكرى فى غير حاجة الى مزيد من قوة أو جلال . فلقد كتب لكل بيت من شعر برسى بيش شلى منذ ترنم هو به الخلود وكتب له الجلال .

ولم يكن لورد بيرون لينسى ساعة فراره أمام المنظر المروع ما كان عليه زميله وصديقه من خلق عظيم ونفس بلغت من السمو أرقى سماواته . فهذا الشاعر الشاب ، الذى ولد فى الرابع من أغسطس سنة ١٧٩٢ وتوفى فى الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ ، قد حلق به جمال الخلق فى سماء الشعر الى مالم يرتفع اليه معاصر له ، والى ما لم يسبقه اليه أحد فى رأى كثيرين ، وما لم يسبقه اليه غير شكسبير فى رأى آخرين . وكان ارتفاعه هذا ليس قائما على خياله

الملتهب وشاعريته الفياضة وكفى . بل كان قائما . فوق ذلك وقبل ذلك ، على قوة فى النفس قل أن يكون لهـا نظير . قوة بدأت مظاهرها منذ الطفولة وتجلت أثناء الصبا وازدادت وضوحا فى صدر الشباب الذى كان ، وهو صدر شباب الشاعر ، خاتمة حياته . وكانت أجلى مظاهر هذه القوة واضحة فى ايمان الرجـل برأيه وصراحته فيه واعلانه اياه وسلوكه سبيل الحياة على موجبه وان أدى لذلك ثمنا فاحشا أن عده الناس مجنونا وان نفرت منه الجمعية الانجليزية أشد النفور حتى اضطرته ليهجرها منذ أول شبابه وليعيش السنوات الخمس الأخيرة من حياته تحت سماء ايطاليا الدائمة الصفو والابتسام والتى تظل من صور الجمال وبدائع الفن ما يزيد فى الهام الشاعر . هذه الشجاعة وهذا الايمان اللذان اعتبرا جنونا هما أساس شاعرية شلى وهما مصدر الهامه . لكنهما لم يكونا كذلك عند لورد بيرون الابيقورى المستسلم لسلطان الزهرة الناهل من ورد بناتها جميعا الحائز لذلك غاية الاعجاب من أهل عصره وأكبر تقديرهم اياه . لذلك كان طبيعيا أن يرى فضائل زميله وأن يقدرها ، وكان طبيعيا أن يفر من منظر النار تحرق مثوى هذه الفضائل وتذره رمادا .

وكثيرون ممن عرفوا شلى من كانت تأخذهم الدهشة لفضائله ، ومن كانت تزيد دهشتهم لشجاعته وصراحته . ذلك أن صورته وتكوينه لم يكونا ينمان عن هذه الفضائل فيه ، وان كانا ينبئان بشاعريته وقوة خياله . فقد كانت فى نظرته وفى ملامح وجهه وفى جمال شعر رأسه أنوثة عذبة تحدث عن رقة ولين لا عن صلابة وشدة . وكان يضوع منه شذا المحبة والعطف بما لا يلتئم مع القوة على

النضال والقسوة فيه . وكان جسمه الطويل النحيل كأنه قصبة هذه القيثارة التى شدت بأجمل الأنغام وتغنت بأحلى الأهازيج . كذلك لم يكن مولده ولا كانت مكانة أهله فى الجمعية مما يزيل دهشة من بلغت الدهشة منهم بشجاعة شلى وصراحته فى اعلان ايمانه حتى حكموا عليه بالجنون . فقد ولد فى أسرة نبيلة جمعت الى النبل المال . وكانت بطبيعة هذين العاملين محافظة ، لتظل من طريق محافظتها ناعمة بمالها ونبلها . كان جده السير بيش شلى بارونا وكان غنيا وكان لا يفتأ يدأب لزيادة ثروته . وكان أبوه تيموذى شلى قاضيا وعضوا فى البرلمان ، وكان قصرهم بفيلدبليس على مقربة من هورشام احدى أعمال سكس محاطا بحدائق وأحراش تدعو الى المتاع بها والطمأنينة لها . وكان جده السير بيش قد جعله بالوصية وارثه مما يدر عليه ايرادا سنويا ستة آلاف جنيه فى ذلك الزمان . سبحان من يدرى كم ألوف تعادلها فى زماننا اليوم ! وتلك كلها أسباب دعة وبلهنية وليست أسباب نضال صلب وصراع للجمعية وللحياة فيها لا يعرف الهدوء اليه سبيلا . ولو أن صاحبها أوتى من هبة الشعر ما أوتيه شلى لكان طبيعيا أن يسلك الطريق التى سلكها بيرون من الانكليز وعمر بن أبى ربيعة من العرب . لكن شلى ضرب بالمال والجاه والدعة عرض الأفق وترك بيت أبيه وترك أهله جميعا ولم يقتض من وصية جده الا بمقدار ما يكفيه حاجة العيش ، وانطلق فى الحياة هائما يجلى بها الفضيلة ويؤدى رسالة الجمال ، ولم يكن له من أدائها بد ، فى أنغام قدسية من موسيقى السماء . ويؤديها ذاهلا عما أحاط بحياته من أحزان ومتاعب متجها بكله الى هذا الوجود المحيط به ، مفنيا نفسه فيه كى يفنى الوجود

كله فى نفسه فتردده الى العالم وحيا سماويا يختلط بالنفوس جميعا ويتنقل على الأجيال الى ما شاء الخلد أن تكون للانسانية أجيال تتعاقب .

وكان لجماله ولرقته أثر بالغ فى حياته وفى تفكيره وفى شعره . جعله هذا الجمال المزدان بخواتم شعره وعيونه العميقة الزرقة ولونه الناصع النظيف ويديه ورجليه الجميلة التكوين وما اتصل بذلك من حسن تحسده عليه كل فتاة فى مثل سن الطفولة التى كان فيها يوم ذهب به أبوه الى مدرسة (سيون هوس) فى برنتفورد ، بالغا فى رقته وظرفه وحلو طبعه . ونشأت هذه الصفات الى جانب جماله عن نفس حية حساسة تأنف القسوة وتتنزه عنها وترى فى عدم النظام وسوء الاتساق ما يؤذيها ويثيرها . على أن هذه الصفات جعلت منه فى المدرسة سخرية زملائه وموضع عبثهم ولهوهم ، مما بعث نفسه غضاضة ومضضا . فلما انتقل به أهله الى مدرسة « ايتون » حيث يتعلم أبناء النبلاء وذوى المكانة لم يزدد لنظامها الا بغضا ولمعاملة زملائه التلاميذ فيها الا مقتا . فقد كان وما يزال من نظام التربية فى هذه المدرسة أن يخدم الصغار فيها من هم أكبر منهم سنا وأقدم فى المدرسة عهدا . وكان الصغير الخادم عرضة لكل أنواع الأذى والاهانة من كبيره . كان يمسح له أحذيته ويأتمر بأمره فى كل حاجة يحلو له أن يأمره بها ، ثم كان هذا النظام يقتضى مع ذلك ألا يصبر أحد على اهانة زميل له اياه وأن يدفع القوة بالقوة والعدوان بالعدوان . ولذلك كانوا جميعا يتقنون لعبة (البوكس) ليدفعوا عن أنفسهم وليردوا اعتداء

المعتدى عليهم ، لكن هذا كله لم يرق الصبى شلى فلم يذعن له . لم يرض أن يكون خادما ولم يرض أن يجعل حق القوة أساس خلقه . ليكن هو نظام المدرسة الذى تابعته وتتابعه منذ أجيال ، فهو لا يؤمن بصلاحه ولا باتفاقه مع الخلق الفاضل والكرامة الانسانية ، فلا يمكن أن يرضى عنه وأن يخضع له : لا يمكن أن يكون خادما ولا أن يخالط أولئك الذين يقضون سحابة نهارهم فى ملاكمة ومصارعة تقوى بها عضلاتهم وأبدانهم على حساب عقولهم وأرواحهم . لذلك اعتزلهم ولجأ الى وحدة لم تزدهم له الا احتقارا ، ولم تنجه من سخريتهم وأذاهم ولطمهم ولكمهم . لكن رقته لم تؤد به الى ضعف ابائه وأنفته ولم تجعل منه ذلك الطفل المستذل الذى يخضع لسلطان الأقوى ويأتمر بأمره . بل كان يقارضهم سخرية بسخرية واحتقارا باحتقار . وكان يدفع عدوان أيديهم عليه بعدوان مثله ، وان يك عدوانا متفقا مع هذه الأنوثة فى تكوينه . عدوان عضّ بالأسنان وهبش بالأظافر بدل اللكم بقبضة اليد مما كان يتورم له وجهه أحيانا . وهو لذلك لم يكن يباديهم العدوان ولا يتحكك بهم . بل كان يتركهم فى ألعابهم ورياضتهم العنيفة ليأخذ هو كتبا محببة اليه مما وضع كتاب الثورة فى فرنسا وأنصارهم فى انكلترا ومما وضع جماعة اليونان الأقدمين ، ثم ينطلق بها بين الأحراش والغياض حتى يصل الى حافة النهر حيث يجلس فينسى نفسه فى المتاع بما فى كتبه وبمشهد هذه الطبيعة الساحرة حوله وبتأمله اياها والتفكير فيها . ولعل أشد ماتأثر به من قراءاته كتاب وليم جودوين : (العدل السياسى) . وكان وليم جودوين من أشد كتاب ذلك العصر تأثرا بمبادىء

الثورة الفرنسية ودعوتها الى الحرية المطلقة فى التفكير ، وما ترتب على هذه الدعوة من خروج على طائفة رجال الدين وتعاليمهم ومن المبالغة فى ذلك الى انكار الدين نفسه • على أن جودوين يختلف مع كتاب الثورة الفرنسية ورجالها أشد الاختلاف فيما يتعلق بوسائل تحقيق الاصلاح الذى يريد ادخاله على النظم وعلى قواعد الجمعية • فكان يرى العقل والمنطق وحدهما وسيلة الاصلاح ، وكان ينفر أشد النفور ويطعن مر الطعن على الالتجاء للعنف ولوسائل القوة وضروب القسوة • ودفعه تفكيره الحر هذا الى انكار أكثر القواعد التى تقوم عليها جمعية عصره • دفعه الى انكار الملك الخاص الا بمقدار حاجة الشخص له والطعن لذلك على الثروات الواسعة • ودفعه الى انكار الزواج على أنه نظام ، لأنه مناط فكرة الملك الخاص • وانتهى من تفكيره الى وجوب اقامة الجمعية على أساس من العقل وحده ، والى القول بأن هذه الأسس لو وضعت على صورة صحيحة زال ما يشكو منه الناس من بؤس وشقاء وجريمة ، وأضحت العقوبة وصمة فى جبين الانسانية • ولذلك كان لا يكفيه أن يطلب الغاء عقوبة الاعدام ، بل كان يطلب الغاء العقوبات جميعا •

فى هذه المبادىء التى وضعها جودوين كثير سبقه اليه روسو وتأثر به أهل فرنسا ورجال الثورة فيها • على أن المبالغة هى التى أدت بهم لينكروا حتى الدين الطبيعى الذى دعا روسو اليه وليجعلوا الالحاد وسيلتهم الى حرية الفكر • ولعلك ان التمست تفسيرا لهذا وجدته فى تشبث رجال الدين يومئذ بسلطانهم تشبثا كان يزداد كلما شعروا بسلطتهم معرضة للنقص ثم الاضمحلال •

على أن واحدا من هؤلاء الذين دفعهم تعصب رجال الدين للمجاهرة بالالحاد لم يلبث أن عاد الى نوع من الايمان فيه جمال وله جلال ، ودعا اليه عن يقين واقتناع لم يكن لرجال الدين حظ منها • ولقد تأثر شلى فى الأيام الأولى من شبابه الى أبعد مدى بكتاب جدوين ورأى فى نظم الجمعية السياسية والاجتماعية والدينية مالا يتفق مع حكم العقل ، واقتنع بأن مرجع هذا كله الى تشبث رجال الدين بأن يخلعوا على كل دقيقة وجليلة من نظام الجمعية ثوبا من القداسة يحول دون التفكير فى معالجة أو ادخال أى اصلاح عليه • أليس نظام الزواج قد طبع بميسم الدين ؟ أليست عروش الملوك أحيطت بسياج من القداسة الدينية ؟ أليس التملك والتوارث وكل ما هو من شؤون هذا العالم الدائم التغير والتطور قد سبك فى قوالب الدين التى يقولون أنها لا تقبل التغير ولا التطور ؟ • لذلك مال شلى الى ناحية الانكار على أنه الوسيلة لكل اصلاح ما دام الانكار هو الوسيلة الوحيدة للحرية فى التفكير والشعور والالهام والايمان •

الى جانب هاته المطالعات التى كانت تثير سخرية أبناء ايتون من شلى كانت طبيعة الحساسية الفياضة بالشعر وبما يلهم الشعر من تعلق بما وراء الطبيعة تدفعه الى دراسات أخرى جعلت زملاءه فى المدرسة يطلقون عليه لقب (المجنون شلى) • فقد كان يعنى بالسحر والسيمياء ويعتقد فى الجن والأطياف ويرى فى الهواء والماء شياطين وآلهة كانت تحيا فى خياله وتصبح ذات كيان ووجود ، لكثرة مطالعاته فى أساطير اليونان وتاريخهم • واتجه عقله متأثرا بهذه الناحية من نواحى طبيعته يلتمس أسرار العلم ويريد أن

يكشف عن مخبوء قوى الكهرباء والضوء . ولذلك كان شديد الولع بأن يكون لديه معمل كيموى صغير يرضى طلعته العلمية والسحرية . على أنه كان كلما ازدادت فى هذا الباب بحوثه ثبت لدى زملائه جنونه ، فلم يستمع له أحد قولا ولم يرض أحد عن نظرياته الجريئة فى الحياة وفى الحب وفى الاصلاح الذى أولع هو به بعد الذى أفاد من مطالعاته . بل كانت كل محاولة من جانبه لاقناعهم برأيه مثارة احتكاك بينهم وبينه وسببا للكمه ولطمه .

وزاده تحديهم ايمانا بضرورة اصلاح الجماعة وتغيير أسس نظامها ومقومات حياتها . لكنهم لم يكونوا يسمعون لما يريد أن يقوله لهم فى هذا برغم أنه لم يفكر فى كراهيتهم بسبب ما يصل اليه من أذاهم وان كان دائم التفكير فى اصلاحهم ، برا بالانسانية وعطفا عليها . فلما لم يجد منهم سميعا جعل من أخواته البنات ومن ابنة عمه هاريت جروف تلميذاته فى أجازاته المدرسية يلقى عليهن تعاليمه ويطالعهن برسالته . ولقد كن بطبيعة الحال ألين من زملاء المدرسة عريكة وأسلس قيادا . وكانت اليزابث كبرى أخواته أشدهن ايمانا به وتقديسا له واعجابا بكل ما يقوله . هو يرى الشر فى الملوك والأغنياء والقسس ، ويرى الخير عند البؤساء والفلاسفة . اذا فالخير عند هؤلاء والشر فى أولئك . وهو يرى الزواج نظاما تعسا ، وانما يجب أن تقوم صلات الرجل والمرأة على أساس من الحب المقدس ، فالزواج اذاً نظام تعس . وكم كانت شاعريته الوليدة تخلع على صور الحب التى يقصها أمام الفتاتين من باهر الألوان ما يسحرهما عن كل ما سوى الحب مما يقوله ويجعلهما تؤمنان به من غير بحث فيه . أليستا يافعتين تتقدمان الى الصبا

ويبدأ فى دمهما مسرى رغباته ؟ والحب عنوان هـذه الرغبات وطليعتها • وشلى شاب جميل حلو الحديث عذب النفس ، له من نوازع الصبا ما لهما ويطير على أجنحة الحب مطارهما • ولئن كانت ابنة عمه هاريت ترى فى حديثه عن الزواج واعتراضه عليه تجديفا لا تميل اليه نفس الأنثى الحريصة على أن تجد من الجمعية كل حماية وعناية ، فلعل الحب الوليد الذى ينشأ بينها وبين شلى يكفل من بعد اعتداله ويدفعه ليعدل عن أوهام الاصلاح فى نظام الأسرة المقدس على الزمان • وان هو لم يعدل من بعد فهى ما تزال بعيدة عن التفكير فى الزواج وفى الارتباط به أو بغيره • يكفيها اليوم أن تخرج معه ومع أخته ، وأن تسمع لعذب حديثه وحلو ترنمه ، وأن ترى فى نظراته وابتساماته لها ما يسليها عن نظرات يجمل بها أن تعتنقها لتزيده بها تعلقا ولها ابتساما • وكانت اليزابث تشعر فى بعض الأحايين أن قد طال بها المقام وأن قد سمعت من نظريات أخيها واستمتعت من عطفه بما يكفيها بقية يومها فتذره وابنة عمها وحيدين يتبادلان نجوى الهوى وحلو حديث الغرام • ثم يعودان متخاصرين يسرى الى جسم كل منهما دفء جسم صاحبه •

وكانت أيام أجازته المدرسية تنقضى فى هذه السعادة الكاملة ، فهو يدعو الى مذهبه فتاتين بديعتى التكوين والفتاتان تؤمنان به وتبادلانه حبا خالصا : حب أخت ترى فى أخيها نبوغا تفخر به ويزيدها حبا له ، وحب فتاة تصبو الى ما يدفع الحب اليه كل فتاة وفتى من تخليد الحياة فى أجيال وأجيال ، على أن يكون تخليدا ترضاه الجماعة وترعاه • فاذا انقضت الأجازة عاد الى ايتون مترفعا عن الساخرين منه مكبا على قراءاته وبحوثه العلمية والسياسية

منتظرا يوما يعود فيه الى تلميذتيه يحدثهما من جديد عن مذهب جودوين ويتحدث اليهما عما نكب به رجال الدين الجماعة من أسس فاسدة .

وأتم دراساته بايتون وذهب به أبوه فى اكتوبر سنة ١٨١٠ فألحقه باكسفورد . وفيها تعرف الى شاب من أمثاله اسمه جفرسون هوج دهش بعد قليل من تعارفهما لكثرة مطالعات صاحبه ولعنايته عناية خاصة بالعلوم والميكانيكا . وقد زادته هذه العناية دهشة حين رأى فى غرفة شلى من الأنابيب والزجاجات ومولدات الكهرباء ما جعلها معملا عجيبا . لكن هذه العناية لم تكن لتصرفه عن مراجعة هيوم ولوك وفولتير وهولباخ وعن مداومة الدراسة فى كتاب جودوين . وكان من دواعى عجب هوج أن يكون لهؤلاء المتشككة كل ما كان لهم من سلطان على ذهن صاحبه المتجه بطبعه الى ناحية التأملات الروحية . لكن عجبه هذا لم يمنع اعجابه بشلى الذى كان يخرج معه كل صباح يجوبان الاحراش فينطلق شلى مرحا يجرى وينط ويلقى بنفسه مقتحما الماء اذا هو صادفته بحيرة من البحيرات ليعود بعد رياضته هذه الى علمه والى تأملاته ، ويعود كذلك الى كتابة القصص والنشرات . فلقد بدأ مع ابنة عمه ومع أخته قصة زاستروزى . وها هو ذا يكتب قصة أخرى يجعل عنوانا لها (القديسة ارفينى) يروى فيها شيئا من تفكيراته . ثم ها هو ذا كذلك يضع نشرة يجعل عنوانها (الحاجة الى الالحاد) ويوقعها باسم جروميا ستكلى ويعمل لنشرها فى كل مكان لينتهى بسبب ذلك الى طرده من اكسفورد والى هجره بيت أبيه والى ما كان بعد ذلك من حياته المشردة .

وكان فى وسعه أن يتوقع ما ترتب على هذه النشرة من نتائج ، بل لعله توقعها ولم يحفل بها ، أو لعل الدافع الذى أدى به لكتابة هذه النشرة لم يكن مما يمكن دفعه أو مقاومته . فقد بعث الناشر ستكديل الى مستر تموذى شلى خطابا يخبره فيه بأن ابنه بعث له بقصة القديسة أرفينى وأن فيهـا من الآراء مالا يسيغه الجمهور وما يبعث الناس على القيامة ضده . فكتب مستر تموذى للناشر بأنه غير مستعد أن يدفع له شيئا من نفقات الطبع والنشر . وانتظر حضور ابنه فى أجازة عيـد الميلاد ، فلما حضر ألفى الجو حوله متجهما وألفى النـاس من أهل هذه البلاد يتهامسون بالحـاده ويزورون عنه وينأون بجانبهم ، وتحدث اليه أبوه ساعيا أن يقنعه من طريق المناقشة فاذا برسى أقوى منه حجة وأسطع برهانا ، واذا الأب يقنع آخر الأمر بأن يقول له فى غضب : انى أومن لأنى أومن . على أن غضب مستر تموذى وتهامس الناس وانصرافهم عن شلى لم يؤثر فى نفسه ولا دعاه الى التفكير فى أمرهم . لكن ما أثر فى نفسه وبلغ منها وأثار حزنها ما كان من ابنة عمه هاريت،فهو لم يكن يشك فى عمق ما بينهما من حب عمقا وصل الى شغاف القلب ، فليس يستطيع أمر من أمور الحياة أن يغير أحدهما على صاحبه أو أن يعدل بهما عما تفاهمت نظراتهما عليه من تقاسم الحياة والاشتراك فى ورد ما فيها من جمال وسعادة . لكنه ما لبث بعد عودته أن تحدث الى أخته اليزابث ، التى ظلت وحدها صادقة الود له ، وسألها عن هاريت وشأنها حتى تولاه الجزع حين سمع منها أنها انصرفت عنه كما انصرف عنه غيرها ، وأن حبها تطايرت جذوته حين علمت أن أهلها والمحيطين بها لا يرون زواجها من هذا الذى

جنت به من قبل وجن بها . وعبثا ذهب شلى وقابل هاريت وحاول اقناعها . فقد ألفاها أشد حرصا على المتاع بنعيم الجمعية من ملبس وحلى ورقص ، منها على الأفكار التى يسبح هو فى سماواتها متوهما أنه يسعد العالم باقناعه بها . وألفاها أشد حرصا على علاقاتها بأبويها علاقة اطمأنت لها منذ مولدها منها على صلتها بشاب لاتدرى ما عسى أن يكون المستقبل معه .

تولى شلى الجزع ، فكتب باكيا ثائرا الى صديقه هوج خطابا يذكر له فيه أنها لم تبق له وأنها انقلبت تكرهه لأنه متشكك كما كانت هى من قبل متأثرة بتعاليمه ، ويعلن ثورته على التعصب ويقسم أنه لن يعفو عنه ، ويعلن أنه ، وان لم يكن يقر الانتقام فهو يرى الانتقام من التعصب عدلا بل واجبا ، وأنه سيكرس كل لحظة من حياته لمحاربته ، لأن التعصب هو الذى يهدم الجمعية ويشجع العقائد الفاسدة التى تحطم أقدس الصلات وأرقها وأعزها . وله عن ثورته هذه العذر ، أنه لم يكن يتوقع أن تحطم تعاليم الدين أشرف عاطفة وأسماها ، وأن تستل من بين الجوانح حبا قائما على التفاهم وحسن ادراك الحياة والتوجه الى ما فيها من جمال لعبادته والتسبيح بحمده . وكيف كان له أن يتوقع هذا وقد كان يرى فى الحب عاطفة قدسية تسمو بالنفس الى ما فوق منافع الحياة ومطامعها وتحلق بها فى أجواء أثيرية تشهد منها بدائع هذا الخلق جميعا متجليا فيما يقع عليه الحس من صور جماله . والحق أن الحب عند شلى كان له معنى أسمى بكثير من معناه عند غيره . هو لم يكن يرى فيه مجرد رابطة نفسية وشركة للتعاون على حمل عبء الحياة ، بل كان يريده امتزاجا روحيا لاستشفاف ما حولنا من

جمال هو مصدر الحياة ، وشركة فى حب هذا الجمال فى متباين صوره ومختلف ألوانه . ولعل أجمل ما يستطيع انسان أن يعبر به عن هذا المعنى ما عبر هو به فى قصيدته (أبسيشديون) حيث يقول ما ترجمته : « لم أتصل قط يوما بهذه الطائفة الكبيرة التى يوجب مذهبها على الفرد أن يختار من بين الجماعة كلها رفيقة أو صديقا وأن يلقى بالباقين ، وان يك لهم ما لهم من جمال وحكمة ، فى جمود النسيان ... فالحب الصادق يختلف عن الذهب والتراب فى أنك كلما شاطرتهما أخذت منهما وأنقصتهما ، على حين هو يشترك مع الفهم الذى يزداد بريقا كلما ازدادت الحقائق التى ينبعث نظره اليها ، وهو كالخيال يستمد نوره من الأرض والسماء ومن أعماق أهواء الانسان ومن ألف مرآة وألف ضلع ، ثم يملأ الوجود بالأشعة الباهرة يقتل بها جرثومة الخطأ بما يسلط عليها ضياؤه من سهام كأنها أشعة الشمس . وياضيق قلب ينحصر حبه ، وعقل يقف تفكيره ، وحياة تنتهى غايتها ، وذهن يقف خلقه عند شىء واحد ، وصورة واحدة ، يبنى لذلك بها قبر خلده » .

اذا فالدين والعقيدة الاجتماعية والنظام الذى يحصرنا فى دائرة هذا الحب الواحد والتفكير الواحد والغاية الواحدة والخلق الواحد ، يبنى لنا قبر خلدنا ، وهو لذلك يفسد أمر الجماعة ويقضى على خير ما فيها من عواطف وأسمى ما فيها من الهام . فعلى الذين أوتوا ما أوتى شلى من هبة أن يقوموا فى وجه هذا الضيق فى القلب والعقل والذهن وأن يصلوها من حربهم نارا حامية .

وعاد شلى الى اكسفورد كئيب النفس حزين الفؤاد ثائر القلب والعقل معتزما أن يشن الغارة على التعصب وأن يفسح الطريق

التسامح والحب والمغفرة والجمال • وكان أول ما صنع من هذا أن أذاع نشرته (الحاجة الى الالحاد) موقعا اياها باسم غير اسمه وموزعا لها على كل من ضيق التعصب دائرة قلبه وعقله • فقد بعث بها الى رجال الدين والى المعلمين والى المشتغلين بالسياسة ، ثم عرضها فى مكتبة باكسفورد لم تلبث أن اعتذرت عن عرضها لأول ما احتج أحد رجال أهل الدين عليها • وقد افتتح هذه الرسالة بقوله « الحس أساس كل معرفة » ، وسار فيها بلهجة ملتهبة يطعن كل قيود الدين ويحطمها • وأبلغت الجامعة أن شلى هو ناشرها ، فسألته ، فأبى أن يجيب ، فقررت فصله • واحتج صديقه هوج على هذا التصرف من ادارة اكسفورد ، فتقرر فصله هو أيضا !! وترك الصديقان الجامعة عائدين الى لندن منتظرين فيها تطور الحوادث وتصاريف الزمن ، مكتفيين فيها بغرفة اعتبرها شلى مأواهما الأخير •

ولما علم مستر تموذى شلى بفصل ابنه من اكسفورد ثار ثائره واستشاط غيظا وبعث له برسالة يخبره فيها أنه لن يمده بمعونة أو مدد الا اذا هو رجع الى فيلدبليس وتلقى فيها الدروس على من يختارهم هو له من الاساتذة • فرد شلى على أبيه يرفض ، فى أدب ، شروطه • ولم يقنع الأب بهذا الرفض فذهب الى لندن وقابل بروسى وصاحبه هوج وحاول اقناعهما بالحجة ليعدل شلى عما كتب فى رسالته عن الالحاد • ومع ما سلكه من طرق التلطف والمجاملة فقد لقى فى ابنه صخرة لا تتزحزح وألفى فيه اباء وقوة عزيمة لم يستطع التغلب عليهما ، فتركه عائدا الى فيلدبليس من غير أن يعطيه درهما ، ولعله كان يرجو أن تضطر الحاجة الابن الى أبيه فينتهى الى الاذعان • أو لعله كان أشد حرصا على سمعته منه على فتاه • وعلى

أى الحالين فقد ظل شلى مصرا على رأيه مرتفعا عن أن ينزل عنه مستخفا بما يتهدده من ضيق ذات اليد ، فما كان المال ليوازى عنده يوما شيئا اذا هو تعارض مع ايمانه برأيه . وبقى معه هوج أياما فى لندن ثم غادرها اطاعة لأبيه الذى ألحقه بمكتب محام يتعلم الحقوق فيه . وأقام شلى من بعده فى العاصمة الانجليزية وحيدا ليواجه الحياة وزعازعها وليستعد لنضال الجمعية التى اضطرته الى عزلته ، مؤمنا بأنه سينتهى الى الظفر بها والتغلب عليها .

— ٣ —

أقام شلى فى العاصمة الانجليزية وهو أقل تألما لاختلافه مع أبيه ولمغادرته الجامعة وانقطاعه عن الدراسة المنتظمة منه لتنكر ابنة عمه هاريت جروف له وازدرائها حبه وانفصالها عنه . لذلك كان أكثر تفكيرا فى هذا الحب المحطم منه فيما يقيم به أود حياته . وفيم عسى يفكر من شؤون العيش وقد كان قانعا بما دون الكفاف حتى لتكفيه بضعة بنسات طعام يومه . فأما هاته التى عقت الحب وعقت آراء جدوين وعقت المبادىء السامية جميعا ، فهى اللغز الذى يوجب العناية ، وهى الداء الذى يتطلب للبرء منه علاجا حاسما .

وأكب يقلب هذه المسألة على مختلف وجوهها حتى خيل اليه يوما أنه عثر فى حجة منطقية على الدواء الناجع لها والحل الصريح للغزها . هو لم يكن يحب من هاريت جسمها ولا كان يقف اعجابه عند جمالها . بل لئن أعجب بحسنها على أنه بعض صور الجمال الذى زينت به الطبيعة الوجود ، فانما كان حبه منصبا كله على سمو ذهنها لادراك نظرياته ونظريات جدوين فى الحياة ونظامها والتسامح وضرورته والحرية وتقديسها والجمال وعبادته . وهذا هو ذهنها

قد فتر عن ادراك ذلك كله وهبط الى مستوى الأذهان العامة وأصبح شيئا آخر غير جدير بأى حب أو تقدير . فماذا بقى بعد ذلك منها جديرا بالحب أو دافعا للتشبث بها والحرص عليها ؟ أو لو عشق انسان فى فتاة جمالها تراه عاشقا الدود الذى يحول اليه جسمها بعد انتقالها الى قبرها !. وقد دفن من هاريت ذلك الذهن الوضاء المرتفع الى مراقى ذروة التفكير والذى اتصل من قبل بذهن شلى وروحه ، وقد اندست الى قبره ديدان الأوهام والأباطيل . فليس شلى هذه العاقة اذا وليسلكها فى سلك البائسات الحقيقات بعطفه ورحمته .. لكن ..! لكن هذه الحجة القاطعة التى أرضت عقل شلى لم تطفىء فى قلبه جذوة زادها عقوق البائسة ضراما . ولعل مرجع السبب فى هذا الى غدر هاريت لما كان يرجو فى صحبتها من تعاون على محاربة الأوهام المفسدة المندسة الى نفس الجماعة أكثر مما يرجع الى شىء آخر . فالصحيح أنه لم تكن بينه وبينها صلة حب على نحو ما يفهم هو الحب . ولذلك لم يطل فى قلبه لاعج الهم ولا فلت جذوته مستعرة الا ريثما وجد فى هاريت أخرى ، لا تقل عن الأولى جمالا ولا ذكاء ، ذلك الاستعداد للسمو معه فى سماوات الجمال والالحاد والتسامح وكل ما دعا كتاب الثورة الفرنسية وتابعهم جدوين فى الدعوة اليه .

فلقد كانت أخواته البنات يتعلمن فى مدرسة للبنات بحى كلابهام ، وكانت رشيدتهن هلن شلى تتناول من أختها الكبرى اليزابث رسائل تبعث فيها بما لديها من نقد كى تعطيه هلن لبرسى لتعوضه بعض الشىء عن اهمال أبيه اياه . وكان برسى يذهب الى مدرسة البنات هذه يحمل بعض الهدايا لأخواته لأنه كان يأبى أن

يستأثر بما تبعث به اليه أخته . وما لبث أن تعرف الى بنات المدرسة حتى بدأ يفكر فى اقناعهن برأيه وحملهن على اعتناق نظرياته ومبادئه . وكانت هاريت وستبروك من أكثر أولئك الفتيات رقة وأحلاهن ابتسامة وأغردهن صوتا ، وكان جمالها يضىء مزدانا بشعرها الذهبى وخدودها المتوردة وشبابها الضاحك الى ورود ربيعه ، وكانت ، على أنها فى السادسة عشرة من عمرها ، صغيرة القد طفلة النظرة يفيض المرح من وجودها كله ويضوع منها سرور طرب يجعل كل ما حولها طروبا ضحوكا . وقد أتقنت القراءة والالقاء فزادت عذوبة صوتها وتغريده حياة وروحا . وعنى أبوها مستر وليم وستبروك بأن يجعل منها ضريبة لبنات النبلاء ليجزى الحظ بذلك عما كان هو مفتتح حياته حين كان يعمل فى الفنادق . لذلك كانت شديدة الحرص على الاتصال ببنات النبلاء زميلاتها فى المدرسة ، وكانت أشد بأخوات شلى اتصالا . فلما رأت الشاب النبيل الجميل برسى يتردد على أخواته وقع من نفسها وتوددت اليه وأظهرت أساها لالحاده وحاولت أن تصده عنه وأن تقنعه بمثل ايمانها وايمان الجمعية كلها . لكنها ما لبثت أن اتصلت به حتى تأثرت بروحه وحتى رأت فيما يدعو اليه بهاء وجمالا لا شىء مثلهما أو يقاربهما فى تعاليم الكنيسة ورجال الدين . فالحرية الأثيرية الأجنحة الطائرة فى فضاء طلق تسبح معه فى جمال الوجود ناهلة ورد كل ما فيه من صور هذا الجمال الذى يحمل اليها شذى الحب وعبقه فيملأ بهما قلب المستمتع بنعيمها من غير أن يثقله بقيد من زواج أو من تملك أو توارث ، ومن غير أن يرهقه بالقوانين أو التكاليف ، هذه صورة جذابة ليس لها فيما حفظت من تعاليم الدين نظير ، الا أن يكون ذلك

فى العالم الآخر وبعد انتقالنا من هاته الحياة التى نحسها ونلمسها . ولو أننا تابعنا شلى لاستطعنا أن ننعم بها فى الحياة نعيم المؤمنين بها بعد الموت . فما لهذا العصفور الجميل هاريت والتفكير فى الموت ، وما لها واكراه خيالها على اقتحام صورة الموت المرعبة الى ما بعدها لترى ما يخيلون لها من نعيم وهناء وجمال ؟ ما لهذا العصفور وهذا الاجهاد مادام رسول الجمـــال والحب شلى يضع له الجنة فى يديه ، جنة لا تقف حدودها عندما يزين من تعاليم ويصقل من صور وآراء ، بل تبدو حقيقة ملموسة فى جمال صورته ، وفى نبله وثروته الواسعة وعذوبة نفسه وطيبة قلبه وحبه الانسانية كلها حبا جما ؟ أوليس خيرا لها أن ترفعها هذه الأيدى الرقيقة الحنون ، أيدى شلى ، الى جنات الحب ونعيمه ، من أن ينشب الفناء فيها أظافره السوداء لينقلها بعد ذلك الى جنات النعيم ؟ لذلك ما لبثت أن آمنت بكل ما يقول وأن أصبحت مثله تلميذة لجدوين ولمن أخذ عنهم جدوين حتى أفلاطون ، وأصبحت لا تجد سعادة فى لحظة أكثر من تلك التى ترى فيها شلى فى المدرسة أو التى تذهب له فيها ببيته فى شارع بولونيا تحمل اليه ما تعطيها أخته هلن من مال . فقد كانت هلن تبيت بالمدرسة ولا تستطيع الخروج منها فى حين كانت هاريت تذهب كل يوم الى بيت أبيها فتجد الفرصة للمرور بصديقها ووليها وأستاذها ومحبوبها .

وكان لها ريت أخت متقدمة فى السن الى ما فوق الثلاثين اسمها اليزا ، تقوم منها مقام أمها المتوفاة . وقد سرها ما عرفت من صلة هاريت بشلى ، كما سر بذلك أبوها واعتبره خطوة أولى يرقى بها الى مصاف النبلاء . لذلك لم يسؤه يوما مرضت فيه هاريت أن

دعت اليزا شلى الى مخدع نوم أختها وأن جلس عند أقدامها الى ما بعد منتصف الليل . وكان من أثر جلوسه اليها أن برئت من مرضها وأن عادت اليوم التالى الى صحتها والى تغريدها وأن تزايد من بعد ذلك وجدها به حتى صار هياما وتدلها . لكن شلى لم يكن ينظر اليها نظرتها اليه . بل كان يرى فيها حياة الروح وسمو الذهن الى الاقتناع بآرائه ومبادئه مما يعزيه عن روح ابنة عمه هاريت جروف التى دفنت فى قبر الأباطيل ونخر فيها سوس الأوهام . كان يرى فيها ضياء جديدا غير هذا النور الذى خبا ، وشريكة فيما يسميه هو الالحاد فى حين هو الايمان بالعدل والحق والجمال . واذا هى لم تكن من طائفة النبلاء فلعل فى تحريرها من قيود هذه الطائفة ما يكفل بقاءها على عقيدتها الجديدة وثباتها فى ايمانها الذى أوحاه هو اليها . وما أجمله ايمانا يتحلى به رأس جميل كله الحياة وكله المحبة وكله العواطف المتأججة .

واطمأنت نفس شلى الى تلميذته والى الحياة وعاوده الرجاء فى صلاح الانسانية كلها ، وان كانت هذه الصلة قد أدت الى فصلها من المدرسة كما فصل هو من اكسفورد من قبل . وزادته طمأنينته هذه شوقا الى أخته اليزابث أشد من عرف من تلاميذه ايمانا به وحبا له . وفيما كان يفكر فى الطريقة التى يعود بها الى فيلد بلاس مر خاله الكبتن بلفلد بلندن وتقابل واياه . وكان الكبتن رجلا كثير التجوال فى مختلف أنحاء العالم ، فكان لذلك واسع الصدر متسامحا لا يطيق أن يفهم كيف يؤدى اختلاف أب وابنه فى الرأى الى تعصب الأب وتصميمه على أن يميت ابنه جوعا . فأخذ شلى معه الى داره بكنفلد ليعيد الصلة المقطوعة وليكفل

للابن عيشه . وكانت فى ككفلد مربية هى مس هتشنر رومانية الجمال تتخطى فى طمأنينة الى الثلاثين من عمرها وتدين بالمبادىء الحرة ولكنها تؤمن بالله . فأخذ الشاب نفسه بأن يشفيها مما سماه « هذا المرض » وقبلت هى أن تتلمذ له ، مدفوعة أغلب الأمر بسحر جماله وعذوبة روحه أكثر من اقتناعها بآرائه ومبادئه . واستعان الكبتن بلفولد الدوق نورفلك على التوفيق بين شلى وأبيه . فلم يحتج المستر نموذى لأكثر من كلمة الدوق كى يعود برسى الى أهله وكى يرى أخته اليزابث . وارتضى الأب أن يرتب لابنه مائتى جنيه سنويا لا يقيدها شرط ولا يؤثر ترتيبها فى حرية شلى بأية صورة من الصور .

ولقد فاضت السعادة بشلى أثناء سيره من بيت خاله لبيت أبيه لغير شيء الا اطفاء شوقه لأليزابث . لكنه لم يلبث الا قليلا بعد ما رآها حتى بهت وعلاه الذهول : هل هذه هى اليزابث التى يعرفها ؟ لقد كانت تؤمن بايمانه وتدين بمبادئه . وكانت عونه على هاريت جروف حين تنكرت له وعقت مبادئه وعادت الى مثل أوهام العامة وعقائدها . فكيف بها هى الأخرى تفعل فعلة هاريت وتثور به وبمبادئه وتجعل كل همها أن تجيل الطرف فيمن حولها من الشبان وأكبر رجائها أن تجد منهم زوجا صالحا ؟ أفترى أولئك الفتيات وبنات جنسهن جميعا ضعيفات غاية الضعف متى تحركت الأمومة فى أحشائهن حتى ينزلن خاضعات لسلطانها عن كل شخصيتهن ، ويتجهن بوجودهن كله تلبية لرغبات هذه الغريزة فيهن باحثات فى أقرب ما يجاورهن عن مستقبل وادع مطمئن للنسل الذى تحمل أرحامهن ؟ وهل ينسين ساعة بحثهن هذا كل ما يسمو اليه الحب

من معان وما يطمئن المحب اليه راضيا من تضحيات فى سبيل تحقيق هذه المعانى ؟ ألا تعسا لنظام الجمعية الزائف القائم على الكذب والوهم المدعم بالقسوة والدماء ! فهو الذى يقضى على أذهان بنات حواء هذا القضاء القاسى .

وعبثا حاول شلى أن يعيد اليزابث الى حظيرته العليا وأن يردها كى تفسر النفس على صور من السمو لا يطيقها الا الموهوبون الذين أرسلتهم الأقدار للرقى بالانسانية درجات جديدة فى سبيل الكمال ، وجعلت من جهادهم فى سبيل رسالتهم لذة عيشهم وسعادة حياتهم . لقد ذاقت الفتاة ما تقدمه الجمعية من صنوف المتاع وما تقتضى ثمنه اذعان بنيها للنطاق الذى ترى فيه الحفيظ على كيانها . لقد ذاقت هذا المتاع المادى القريب الى متناول اليد ، وهاهى ذى ترى فى الأمومة صورا أخرى من المتاع لا سبيل لها الى نيلها الا الاندماج فى قطيع الجماعة وتقديس أوهامه وترهاته . أفتنأى بجانبها عن هذا المتاع لتقف من الجماعة موقف أخيها ، وتنظر العيون اليها شزرا ، وليسم القانون متابعتها عواطف قلبها عهرا ؟! كلا ! ولئن كان شلى أخا صادق الأخوة ، فأول واجبه أن يبحث لأخته عن زوج نبيل غنى جميل تستكمل به كل ما فى مادة الحياة من متاع وتؤدى به للأمومة واجبها .

ويئس شلى من أخته كما يئس من قبل من ابنة عمه ، فلم تبق له لذة فى مقامه بين أهله . وجاءته دعوة من هوج كى يذهب اليه فى يورك ، وأخرى من فتاتى وستبروك ، وثالثة من خاله الكبتن بلفلد ، ولكنه تردد فى قبولها جميعا ثم فضل عليها دعوة أحد أقاربه الى بلاد الغال على شاطىء البحر ، آملا أن يجد من جمال

طبيعة تلك البلاد ومن تلاطم الموج والصخر ما يسكن ثورة نفسه وما يبعث الى قلبه السلوان عن مصابه فى ذهن أخته • وفى مقره الجديد نصب نفسه رسولا يدعو الى الحرية والحق والتسامح ، فى رسائل كانت تستنفد أكثر وقته يكتبها الى هاريت وستبروك والى مس هتشنر والى هوج والى غير هؤلاء ممن يأنس فيهم ميلا الى الرقى نحو الكمال • ولم يطل به المقام فى عزلته الجميلة حتى تسلم رسالة من هاريت تذكر له فيها أن أباها يريد أن يعود بها الى المدرسة التى فصلت منها ويطلب اليها أن تنكر تعاليم شلى كى ترضى ناظرة المدرسة عن رجوعها ، وأنها اعتزمت أن تنتحر كى لا تلبى ما يريدونها عليه • فرد شلى عليها يسكن من روعها وبعث الى أبيها يلومه لما يحاول من اكراه الفتاة عليه • وغضب أبوها لتصرف هذا الشاب الذى كان راضيا من قبل عنه مغضيا عن تعاليمه حين كان يحسب أنه سيتزوج ابنته ثم اذا به كغيره من أبناء النبلاء يغرون الجميلات من بنات الطبقات الأخرى ثم ينأون عنهن ازدراء لمنبتهن • ولم تطاوع هاريت أباها على أن يكون ذلك شأن شلى ، فكتبت اليه من جديد تشكو ، وذكرت له أنها ، متأثرة بخطابه ، عدلت عن فكرة الانتحار ، ولكنها تريد الفرار معه • فترك الغال ، حين تسلم رسالتها ، وذهب الى لندرة كى يحاول اقناع أبيها بأن لا حق له فى اكراه ابنته على غير ما تريد ، آملا أن تبقى الفتاة فى رعاية مستر وستبروك مع بقائها مؤمنة بالحياة الجديدة التى اختار هو لها سبيلها • فلما رأته الفتاة تعلقت به وألحت عليه كى يفرا معا ليقيما حيث يشاء • وحاول هو أن يردها عن رأيها فكان جوابها : لكنى أحبك ولا صبر لى على بعدك •

هنا وجم شلى ، وزاده وجوما اللهجة الصادقة القوية الملتهبة التى اعترفت الفتاة فيها بحبها اياه • لكنه هو لم يحبب منها عذوبة صوتها ولا جمال تكوينها وانما أحب منها سمو ذهنها وجمال روحها ! على أنه اهتز مع هذا لاعترافها ، وشعر معه بسموها على ابنة عمه وعلى أخته • انها تحبه وتريد الفرار معه مزدرية أوهام الجماعة وعقائدها مستعدة للاشتراك معه فى نضالها لهدايتها واصلاحها • فلم يستطع فى تداول نفسه بين اهتزازها اعجابا بهذا الاعتراف ، وشعورها بأن ليس يشغلها هذا الحب الذى تريد الفتاة أن يبادلها مثله ، الا أن يملس على شعرها وأن يسكن من روعها وأن يعدها بصدق اخلاصه لها وأنه سيكون الى جوارها عند أول نداء يصله منها • وكفى الفتاة أن تسمع منه هذه الكلمة ليزول عن وجهها شحوب جاءته به أيمان أقسمها أبوها بأن شلى ضلل بها وأنه لا يحبها ، وليعود الى لونها تورده والى وجودها شبابه وفرحه •

وكتب شلى يقص على هوج ما حدث • فأجابه صديقه ناصحا اياه ألا يغر بالفتاة الا أن يتزوجها • واذا كان لا يؤمن بالزواج ويرى فيه نظاما تعسا ، فليس من حقه لذلك أن يشقى فتاة تحبه • قلن يصيبه هو من هذا الفرار خسارة ولن يناله منه أذى • أما هى فستكون ان لم تتزوجه منظورا اليها بعين الازدراء حيث سارت ، مغضوبا عليها من أبيها ، محرومة من عطفه ومعونته ، شاعرة لذلك بألم قد يجنى فى نفسها الطفلة على حبها اياه • فاذا كان شلى لينفذ مبادئه وتعاليمه ولينفصل حين ذلك عنها ، فماذا يكون أمرها وأيان يكون مصيرها ؟ أفلا يكون بهذا مسلما اياها للتعس والشقاء

وتكون التعاليم التى يريد بها سعادة الانسانية مؤدية بالفتاة الى البؤس والسقوط لغير ذنب الا أنها أحبته ؟ ..

وصدمت شلى قوة حجج صاحبه فتراجع أمامها وتردد فى وعده الفتاة أن يكون الى جانبها لأول ما تدعوه اليها . لكن الفتاة لم تمهله فى تردده بل بعثت اليه بعد أسبوع من تركه اياها تدعوه اليها . ولم تطل فى نفسه المعركة بين المبدأ والواجب . فذهب اليها مذعنا للواجب معتزما أن يفر بها وأن يتزوجها تاركا بين يدى القدر ما يؤول اليه أمرهما من بعد .

وغادرا عاصمة انكلترا قاصدين عاصمة ايقوسيا وقضيا فى سياحتهما أياما شعر شلى خلالها بحياة جديدة تسرى الى قلبه وعاطفة حلوة تتحرك بين جوانحه . لقد فر عصفوره معه طائرا عن العش الأبوى حبا له وغراما به ، فلم يك حديثها معه عن الحب هذا الحديث القديم يسموان فيه الى التفكير فى المعانى التى يريد هو أن يحيط الحب بها ، بل أصبح حديث غرامها هى وتدللها ، وأصبح حديثا دلالة الألفاظ فيه دون دلالة النظرات والبسمات والقبلات . ها هى ذى تستيقظ الى جانبه فاتّا عيونها اليه معسولة ندية النظرة كلها الشوق والهوى ، واذا أذرعها تطوق عنقه وأصابعها تعبث بشعره وقدها الصغير يجتمع كل ما فيه من حياة صاعدا الى قلبها كى يبعث بها الى فمها فتطبعها على فمه قبلة فيها كل قلبها وكل حياتها وكل حبها . وها هى ذى النهار كله تشدو اليه بأغاريد حبها وهواها ، ثم ها هى ذى الليل تطوق ثغرها ابتسامة السعادة ويهفو الى أذنه ترددها لاسمه حين أحلامها بهنائها ونعيمها . لذلك لم يكادا يصلان الى أدنبرج ويختاران فيها مسكنا حتى أتم زواجه

منها وملكه اياها . وكذلك قضيا أياما نسى فيها شلى نفسه ورسالته واستسلم فيهـا بكله الى المتاع بحب هاريت حبا بعث الى كل ما يحيط بهما من بحر وشجر وجبل وزهر شذى جعلها تضوع بريح الحب هى الأخرى وتزداد على جمالها جمالا وسحرا .

ثم آن لشلى أن يعود الى تأملاته وتفكيره ، فاذا هاريت فى شـغل عنها بحبها له وعبادتها اياه . فان هى شاركت فيها كانت صدى له يرد اليه تأملاته هو فى صوت عذب وحديث حلو . لذلك ود شلى ، مع اطمئنانه لعزلتهما وسعادته بحبهما ، لو أن صديقه هوج كان معهما . وكأنما كانت الأقدار فى هذا طوع رجائه . فـلم تك الا أسـابيع بعد عودته الى التـأمل والتفكير حتى جـاء هوج فى أجـازة له يقضيها عند صـديقه . وقد بهرته روعة جمال هاريت الى حد كاد معه يمل حديث شـلى وبحوثه ونظرياته . وسر شلى بأن أتاحت له ضيافة هوج خروج هاريت معه للنزهة وتركه هو لقراءته وتأملاته . فلما آن لهوج أن يعود الى يورك اقترح عليهما أن يذهبا معه اليها . وسافر ثلاثتهم فلم يجد شلى فى يورك جمالا يغذى روحه المستعرة الظمأ للجمال . وزاده هما أن لم يصله من أبيه المال الذى اتفق على أن يبعث له به . فسافر الى ككفلد ليرى خاله الكبتن بلفلد وترك زوجه فى حماية صديقه الى أن يبعث اليها بأختها . ولم يملك هوج نفسه من أن يذكر لهاريت أنه يحبها . فصدته الفتاة عنها وقاومت هجوم هواه يوما واحدا ، أن حضرت أختها فى اليوم الثانى فحالت بينهما . ولما جاء شلى وأخبرته بخبر هوج لم يزد على أن لام صديقه على سوء صنيعه ، ثم غادر المنزل مسافرا ومعه زوجه وأختها اللتان

رأتا فى صنيع هوج ما لا يمكن معه احتمال مرآه • وعاد هوج من مكتب المحامى الذى يشتغل فى رعايته فألفى المنزل خلاء وان لم يخبره بالسفر أحد !! •

واختار شلى الذهاب الى منطقة البحيرات اذ كان يقطنها الشاعران الكبيران سوذى وكولردج • وكان شلى قد بدأ يقرض الشعر ، فهو يطمع فى مثل عظمتهما ويرجو أن يكون من شعراء منطقتهما • ولما كان دوق نورفلك يقيم كذلك فى هذه المنطقة ، وعلم بمجىء شلى اليها ، فقد كتب يدعوه وزوجته الى قصره • وهناك عرف صديقا لسوذى ذهب به الى بيت الشاعر الذى كان يحل من نفس شلى أسمى مكانة وأرفعها • لكن شلى لم يلبث أن تولته الدهشة حين ألفى زوجة سوذى أبعد ما تكون عن الهام الشعر وان كانت ربة دار مضربا للمثل • ولما دار بينه وبين سوذى الحديث ، بهت مما سمع • فسوذى ، هذا الشاعر الفحل ، يقول انه متدين وأنه مسيحى ! وهو يحب المال ويطمع فى كسبه ! وهو يعيش كما يعيش الناس ويفكر تفكيرهم ! أليس هذا عجبا ؟ ثم ماذا ؟ ثم عثر فى مجلة على مقال لسوذى يصف فيه ملك انكلترا بأنه خير ملك جلس على عرش • وعلم أن سوذى يقصد من هذا الى أن يخلع عليه الملك ألقابه • اذا فهو رجل يسخر ضميره لمطامعه ولا يرجو من الحياة الا ما يطفىء ظمأه لنعيم المادة • اذا هو لا يستحق احتراما ولا تقديرا • ليكن له من ملكة الشعر ماله ، فلن توحى ملكة أيا تكون باحترام صاحبها اذا نزل باخلاقه وبعمله فى الحياة الى المستوى الوضيع الذى لا يطمع الناس منه الا فى كاذب الجاه وفى اكتناز المال •

أما سوذى فعجب لأمر شلى وصلابته فى رأيه وان لم ير فى ثورته بالدين الا مرحلة من مراحل التفكير يمر بها الشباب الذكى جميعا ثم يعودون الى نوع من الايمان له روعته وجلاله • بل لقد كان شديد الاقتناع بأن سيكون ذلك شأن شلى ، لأن نفسه نفس شاعر ، ونفس الشاعر لا تطيق الالحاد وما يصور الالحاد من عدم • ولأن نفس الشاعر تخلق فلا تستطيع أن تنكر الخلق • ولأنها جميلة فلا معدى لها عن الايمان بالجمال • ومن يدرى أى مصير كان قد أعده القدر لايمان شلى لو أن منيته لم تعاجله فامتد به العمر حتى رأى من عبث الأقدار بالناس والحياة أكثر مما رأى !! •

وكان من حظ شلى ألا يفجعه القدر حتى يسرع الى أن يعوض عليه فجيعته • فكما عوضه عن هاريت جروف بهاريت وستبروك ، كذلك عوضه عن سوذى بمن يؤمن به ألف مرة أكثر من ايمانه بسوذى ، فقد عرف اذ ذاك أن وليم جودوين حى يرزق وانه يقيم بلندن وأنه يستطيع أن يراه • لذلك سارع فكتب الى مؤلف (العدل السياسى) رسالة كلها الاعجاب به والرجاء فى الاستماع له •

على أن شلى كان يومئذ فى شغل بمشروع كبير لم يدع له الفرصة كى يسرع الى لندن للحاق باستاذه الروحى العظيم • ذلك أن الكاثوليك من أهل ارلندا كانوا يعاملون معاملة شاذة ، سببها أنهم على غير البروتستانية دين المملكة ودين الغالبية • فكانوا محرومين من مناصب الدولة غير معترف لهم بكثير من الحقوق المدنية المقررة للانسان • وقد رأى شلى فى هذا فرصة سانحة ليعلن حربه على الظلم وليناذى بالمساواة بين الناس جميعا لا يفرق الدين بين أحد منهم ولا يجعل له فضلا على غيره ، وليشن

الغارة على رجال الدين وما يدعون اليه من تعصب ، وعلى الملوك وما يحيطون به رجال الدين من رعاية يردها رجال الدين اليهم بدعوة الناس الى تقديس عروشهم والاذعان لظلمهم واعتباره بعض ما أراد الله لخيرهم • ولهذه الغاية وضع نداء مطولا دعا فيه الى مبادئه ، وفى مقدمتها التسامح ، والى هذه الأفكار التى خلفتها الثورة الفرنسية وراءها • لكن الثورة كانت قد أخفقت فى نظر النـــاس من أهل ذلك العصر ، لأنها بعد ما قدمت فداء للحرية والمساواة ما قدمت تضحيات وبعـــد ما قضت عليه من رؤوس أطاحتها وثورات عصفت بها ، لم تبلغ من غايتها أكثر من أن قدمت أبناء فرنسا كلهم طعاما لشهوات نابليون الحربية وأن أجلسته امبراطورا على عرش الجمهورية • وسر اخفاقها فى نظر شلى وجدوين وكثيرين من كتاب العصر ومفكريه انها اعتمدت لتحقيق غاياتها على القسوة والعنف ، فمهدت السبيل لنفور الناس منها تنفسهم الصعداء لانقضاء عهدها • ولو أنها جعلت الرحمة والتسامح وبر الانسان بالانسان وتفاهم الأخ مع أخيه أساسا لها ، لحققت على الأرض كل غاياتهـــا وان احتاجت الى زمن أطول مما كان يقدر رجالها لنجاحها • ولهذا دعا شلى الى مساواة الكاثوليك بسائر الانكليز فى الحقوق والتكاليف ، طالبا الى الكاثوليك أن يتمسكوا بحقهم فى هذا من غير أن يلجأوا الى عنف أو دماء • واتخذ مقرا لدعوته فى دبلن بيتا أقام فيه مع هاريت واليزا ، وجعل يوزع على الناس نداءه الحار الملتهب لهذه المبادىء السامية • وقد خيل الى بعض أصدقائه أن البوليس لابد أن سيقبض عليه وأن أهل ارلندا سيلتفون حوله • لكن هؤلاء سخروا من رسول حريتهم الذى

لم يبلغ بعد العشرين من عمره ، ووجدوا فيه وفى زوجه الطفلة الرقيقة موضع دعابة وعطف مما جعل البوليس لا يهتم لهما ولا يعبأ بهما . والحق أن شلى كان مخطئا كالذين رأوا معه أن اخفاق مبادىء الثورة الفرنسية يرجع الى التجائها للعنف والقسوة . الثورة الفرنسية ، ككل ثورة غيرها فى العالم ، لم تبدأ لتحقيق المبادىء التى أعلن أهلها أنهم يريدون تحقيقها . بل هى بدأت أول أمرها لأسباب اقتصادية بحتة . وكان الذين سبقوها من أمثال روسو وفولتير وديدرو قد نادوا بأن سعادة الناس تتم اذا تحققت المبادىء التى أعلنوها . فلما دكت قوائم عرش فرنسا وأزيح كابوس الجوع وبدأ الذين ألقت اليهم ظروف ذلك العصر مقاليد الأمر يفكرون فى الطريقة التى يسعد الناس بها تناولوا المبادىء التى كان الناس من قبل يقرأونها فتلذهم قراءتها من غير أن يؤمنوا بها . وكان كثير من حكام المصادفة أولئك أقل الناس ايمانا بفائدة المبادىء التى أعلنوا أنهم يريدون تطبيقها ويحاربون من يقف فى سبيلها ، لكنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من ذلك استبقاء للسلطة فى أيديهم وتخلصا ممن قد ينازعهم اياها . فهم اذن متعصبون لمصالحهم كرجال الدين ممن يحاربهم شلى سواء بسواء . لكنهم وحدهم هم الذين يبلغون هذه المبادىء السامية الى ذهن الجماهير ، لأن الجماهير لا تفهم الا اللغة الدموية الوضيعة : لغة القسوة والارهاب والبطش . ولو أن شلى استطاع أن ينزل من سمائه العليا الى هذه المرتبة لأحاط الجمهور به ولهتف له ولتابعه ولولغ واياه فى الدم ولابتهج لهذا المنظر الذى يحرك فيه حيوانيته الأولى ثم لثبت قليل أو كثير من هذه المبادىء فى ذاكرته يستظهرها بعد

رجوعه الى وعيه . أما وشلى يخاطبه بلغة السماء ويتحدث له عن حب الانسان للانسان وتسامح الانسان مع الانسان ، فلا مطمع له فى أكثر من سخرية الجمهور به سخرية شابها العطف على شبابه وعلى جمال زوجته .

وعبر شلى وصاحبته البحر من جديد الى بلاد الغال يائسا من أولئك الكاثوليك الذين لايفهمون . وظل يتنقل فى مختلف بلاد الشواطىء البحرية زمنا لم يهتد فيه الى مسكن يسر به ، فغادرها متجولا فى نواح مختلفة حتى اهتدى فى لنموث الى منزل أعجبه فأقام به : أعجبه لما يحيط به من مناظر شعرية جميلة يزيدها عنده جمالا عزلتها وقلة اختلاف الناس اليها . وفى هذا المنزل قبلت مس هتشنر دعوته فجاءت لتقيم معه . والحق أنه كان بحاجة الى صديق روحى يبادله الرأى ويدرك واياه صورة الحياة . فلقد ظلت هاريت طفلة ، ولم تزد على ما كانت عليه تلميذة . وكان هو يومئذ فى بدء نشاطه الشعرى يضع أولى قصائده الكبرى المعروفة فى ديوانه (بالملكة ماب) أودعها ما وصل اليه من فلسفة . وكان يريد من يردد شعوره ويقدر آراءه .. فلما أراد محاولة أن يجد من هاريت ذلك الشخص تبدى له أنها لا تتذوق الشعر ولا تفهم الفلسفة . لذلك طار سرورا من مجىء مس هتشنر وطلب اليها أن تزيد فى تهذيب زوجته . ولعل هذه كانت طلائع التباين فيما بينهما تباينا ينتهى الى الافتراق والى انتحار هاريت غرقا ويدس فى حياة شلى هما ناصبا يظهر أثره من بعد فى كثير من شعره .

— ٣ —

أقام شلى بالمنزل الذى اختاره فى لنموث ومعه زوجه هاريت

وستبروك وأختها اليزا ومس هتشنر حتى أوائل خريف سنة ١٨١٢ .
ومن لنموث وجه شلى الى القاضى لورد اللنبرا خطابا كان أعظم أثرا وأشد وقعا من كل ما حاول فى أرلندا ، وكان وما يزال ينبىء عن قوة شلى فى النثر بما لا يقل عن قوته فى الشعر . فقد حكم هذا القاضى على مستر ايتون بالسجن والتعذيب ، لأنه نشر كتابا يطعن على المسيحية وينكر فيه المعجزات والبعث ، ويرى فى التثليث نظرية لا يقبلها العقل . ولم يدر بخلد أحد أن يجعل من هذا الحكم موضع طعن ان كانت للأحكام فى كل أمة قداستها . على أن كتابا فى فرنسا وفى غير فرنسا ممن يعجب بهم شلى لم يترددوا حين رأوا فى حكم ظلما عن أن يكرسوا الكثير من جهودهم لرفع الظلم بالعمل لاعادة النظر فى الدعوى . وهذا فولتير جعل من قضية كالا الذى حكم عليه بالاعدام وبتجريد أبنائه من ثروتهم موضعا لحملة انتهت باعادة النظر فى الحكم وباعادة شرف كالا اليه بعد اعدامه وازالة ما ترتب على الحكم الأول من نتائج بالنسبة لأبنائه ووارثيه . والحكم على مستر ايتون أجل فى نظر شلى خطرا ، فهو لا يقتصر على ادانة انسان من الناس بل يدين حرية الفكر والتعبير عنه ، ويقيد العقل بقيود تضطر حر الرأى الى النفاق للجماعة مخافة ما ينزل به من عقاب ، وتحول بين الجماعة والاستفادة من تفكير ذوى المواهب الذين تبعثهم الأقدار ليداوموا السير بالانسانية الى ناحية الكمال . لذلك وجه الى اللورد اللنبرا خطابه القوى مفتتحا اياه بقوله : « مولاى — أما وللمركز الذى دعتك بلادك لتقوم فيه ما له من أهمية ، فالتبعة المترتبة عليه هى لذلك أعظم خطرا . ويجب لذلك عليك مداومة النظر فى أنك لم تحكم خطأ

بالعقاب على فاضل أو بالمكافأة لناقص ... وصحيح أن القوانين القائمة تحميك من محاسبة أية سلطة دستورية اياك بسبب الحكم الذى أصدرته على مستر ايتون . لكن ليس ثمة أى قانون يستطيع حمايتك من سخط الأمة عليك وعدم موافقتها على حكمك ، وليس ثمة قانون يحول بينك وبين حكم الأعقاب عليك اذا كان للأعقاب أن تعنى بذكر شأنك » . ثم ينطلق شلى مندفعا : — « لكن بأى حق تعاقب مستر ايتون ! ليس هنالك الا سوابق عتيقة من أيام تحكم الكهنوت وظلمهم هى التى يمكن الادراع بها لاهانة الانسانية والعدالة هذه الاهانة المزرية . فأى رجل أضر به مستر ايتون ؟ وأى جريمة ارتكب ؟ ولم لا يسير حيث يشاء كما يفعل سائر الناس، ثم لم لا يعيش كما اعتاد أن يعيش ؟ وأية غاية ترجى من حبس هذا الرجل الذى اتهم بأنه لم يرتكب ما يشين شرف انسان ؟ » ويسوق شلى الحجج بعد ذلك يأخذ بعضها برقاب بعض يدلل بها على أن التسامح ملاك سعادة العالم واخاء الانسان للانسان والوسيلة الوحيدة لاستعلاء الحق والفضل ، وأن التعصب والاضطهاد لم يجرا على الانسانية الا ويلات كانت أداتها أمثال لورد اللنبرا . ويسوق هذه الحجج فى لهجة قوية تظهر فى مثل قوله :

« ان نظام الاضطهاد لا يضارع عجزه ولؤمه الا اضطراب المنطق فيه . فالمطابع مثقلة بما يسمى (تهكما فيما أظن) الأدلة المثبتة للمسيحية ، وهى كتب حافلة بالمطاعن والأكاذيب على منكريها ، وقوامها أن كل من يرفض المسيحية مجرد من الادراك والشعور ، وسبيلها أن تقرر ما لا دليل عليه ، وأن تتخذ من الأباطيل الشائعة المنفرة ، مبادىء أولية صحيحة ، ومن النتائج المستخلصة من هذه

المقدمات المفترضة ، بنى شاهقة المنطق . ولكن اذا كان الأساس واهيا فما الحاجة الى مهندس ينبئنا بتداعى البناء ؟ واذا كانت حقيقة المسيحية لا نزاع فيها فلماذا توضع هذه الكتب ؟ واذا كان الموجود من الكتب كافيا لاثباتها فما وجه الحاجة الى جدل جديد ؟ واذا كان الله قد تكلم فلماذا لم يقتنع العالم ؟ واذا كانت المسيحية ينقصها علم أعمق وبحث أشق لاثبات حقيقتها ففيم اللجوء الى القهر فيما لا يسع سوى العقل الانسانى أن يؤديه على وجه يرضيه ؟ » .

وهو يعود بمثل هذه اللهجة ، ناعيا على التعصب ، داعيا الى التسامح ، محاولا التدليل على أن الاضطهاد لن يخفت صوت الحق ولن يكون من أثره الا دفع الجماعة لتقديس ذكرى من حل الاضطهاد به ، على نحو تقديس المسيحيين لعيسى لغير شىء الا تعذيب اليهود اياه ، وذلك حين يقول :

« من الحقائق التى لا سبيل الى نقضها أنه لو لم يكن اليهود همجا متعصبين ، أو لو أن عزيمة بونتياس بيليت كانت كصراحته ، لما استطاع الدين المسيحى أن يستفيض ، بل لما أمكن أن يوجد . فيا من أعز آرائه عليه رهن بمثل هذا الخيط الضعيف ، وأعلق عواطفه بقلبه مصدرها يعتوره الشك ! تعلم على الأقل التواضع ، واعترف بأن من الجائز أن تكون تربيتك وظروفك قد سولت لك التسليم بقواعد لا ينهض عليها دليل ولم تثبت صحتها على وجه مقنع مرض ، واعترف كذلك على الأقل بأن فساد رأى أخيك ليس بالسبب الكافى الذى يجعله أهلا لكرهك . أمن أجل أن انسانا مثلك ينكر أن عقيدتك معقولة ، يكون حقيقا بعقاب التعذيب

والسجن ؟ واذا سلمنا بجواز الاضطهاد الدينى فما أوسع الباب الذى يفتح ويقتحم منه المتعصبون من كل لون على سلم المجتمع وسلامه ! وأى وحشية وفظيعة دموية لا تنقلب مباحة ؟ ولكنى أسأل : أليس ذلك الرجل الذى ينكر صحة عقيدة شائعة أحق بتعظيم المجتمع منه بسخطه وغضبه ؟ لأنه اما أن يثبت زيفها وعقمها (وبذلك يقضى على ماهو زائف ولا طائل تحته) واما أن يتيح لأنصارها الفرصة لاثبات صدقها وجمالها • وهذا — على التحقيق — لا يمكن أن يكون جريمة • فان من يهب وقته للبحث الحر والتحقيق الجرىء فى كبرى المسائل التى ترجع فى مرد أمرها الى طبيعتنا الاخلاقية ، يكون أجدر بتشجيع المشترعين المتنورين منه بأن يحيق به انتقامهم • وأحب أن تعلم يا سيدى اللورد أن أغلال الحديد لا تقيد ولا تخضع روح الفضيلة • وانها تسمو فوق وحشية المحابس وقسوتها ، وترتفع حرة جريئة الى حيث لا تقدر روحك أن تحلق وراءها من مقعدك الفخم فى القضاء • ولست أدعوك لتحذر أن تنسيك مسيحيتك أنك انسان ، ولكنى أعظك أن تستعجل ذلك العصر الذى يقبل علينا مسرعا فى ظلم نظام القهر الحاضر ، والذى تكون فيه مجالس القضاء حقيرة مأجورة ، وتكون السجون منازل لكل ما هو شريف وصادق » •

ويصل الى القمة من حججه حين يستشهد التاريخ على أن الظلم لم يخفت صوت الحق بل قضى على الظالمين ، وذلك فى عبارة بالغة غاية الابداع ، حين يقول :

« سقى سقراط السم لأنه اجترأ أن يكافح الخرافات التى كان مواطنوه يلقنونها وينشأون عليها ، ثم ما عتمت أثينا بعد موته بقليل

أن تبين لهـا ما فى حكمها عليه من الظلم فانتصفت له من متهمه « مليتاس » ورفعت سقراط الى قريب من مراتب الأرباب .

« وصلب المسيح لأنه حاول أن يهذب طقوس موسى ويستبدل بها ما هو أدنى الى الانسانية وأشبه بالخير . ولقد أعلن قاضيه على الملأ اعترافه ببراءة ساحته ، لكن الشعب الجاهل المتعصب أبى الا الفعلة الشنعاء ، فسرح براباس القـاتل الخائن وقدم المسيح الوديع المصلح قربانا لاله اليهود الدموى . ثم مضى الزمن وتبدلت الأحوال وتغيرت معها آراء الناس وراح الغوغاء — على عادتهم من التطرف — يرون فى صلب المسيح خارقة . ولم تعوزهم شواهد المعجزات وآياتها — وما أكثرها فى عصور الجهالة — ليثبتوا بها أنه كان من الله ، ودارت هذه العقيدة فى النفوس مع العصور والتقت بأحلام أفلاطون ومنطق ارسطاليس ، واكتسبت القوة والسعة والامتداد حتى تقررت ألوهية المسيح وصارت المنازعة فيها مجلبة للموت ، والشك فى صحتها جريمة وعارا » .

« والمسيحية الآن هى الديانة المقررة ، فمن أراد أن ينازع فى ذلك فعليه أن يوطن نفسـه على أن يرى السفاكين والخونة يتقدمونه فى اعتبار الرأى العام . الا اذا كانت عبقريته كفاء شجاعته وآزره من ظروف الأحوال ما يكفل له أن ترفعه الأجيال المقبلة الى مصاف الآلهة وأن تضطهد الناس باسمه وفى سبيله كما اضطهد هو باسم من كانوا أسبق منه الى الفوز بعبادة العالم » .

ثم يختتم خطابه بقوله :

« ان الزمن ليقترب مسرعا حين يعيش المسـلم واليهودى والمسيحى والمؤمن والملحد معا فى جمعية واحدة يتقاسمون متساوين

ما ينشأ عن اجتماعهم من فوائد ويتحدون مرتبطين بروابط الاحسان والحب الأخوى . وأرجو لمولاى اللورد أن يرى ذلك اليوم » .

ولما أتم شلى خطابه هذا حاول العود لاتمام قصيدته « الملكة ماب » . لكن حياة لنمث بدأت تثقله وتدفع الملال الى نفسه ، ذلك أن الغيرة دبت الى نفس زوجته من مس هتشنر فرأت فيها منافسا لها دس الهم الى حياتها . وربما وجد شلى الوسيلة الى الدفاع عن ضيفه لو أنه وجد منها ما كان يرجو من مشاركته فى تفكيره والهامه ، بما يزيده تحليقا فى سماء الشعر ينهل فيها كل ما يريد من صور ومعان وألوان . وزاد فى همه أن رأى هاريت لا تتابعه فى جولات خياله وذهنه بما يزيده قوة على قوته وسموا على سموه ، بل وقفت تتلفت الى ما حولها تبتغى من متاع الحياة مثل ما ابتغت من قبلها أخته وابنة عمه . حينذاك أيقن شلى أن لا سبيل للبقاء فى وحدة الريف واعتزم العود الى لندن عله يجد فى الجماعة مسليا عن هذه العواطف الوضيعة التى بدأ المحيطون به يشغلون بها ذهنه ، وفى مقابلة جدوين منشطا لروحه فى توثبها للعمل على سعادة بنى الانسان اخوته . واختار فى العاصمة فندقا صغيرا أقام وصحبه فيه . ثم ذهب مع زوجته فى يوم من اكتوبر يزور استاذه فى موعد حدده . وكان جدوين يقيم بمنزل صغير يتصل بمكتبة يطبع هو فيها كتبا للأطفال ويبيعها . ذلك أن مكانته التى بلغها بعد نشره كتاب (العدل السياسى) والتى دعا فيها الى هدم نظم الزواج والاسرة والنزوع الى صورة مخففة من الشيوعية كانت قد ضعفت بمقدار عظيم . فلقد كان يوم كتب هذا الكتاب

قسيسا خرج على زمرته وأطلق العنان لفكره . لكنه ما لبث بعد ذلك أن تزوج من مارى ولستنكرافت ، التى ماتت تاركة له ابنة دعتها باسمها مارى ، وابنة أخرى من زوجها الأول هى فانى املاى . ولم يمض على موتها حين حتى تزوج مرة أخرى من جارة له كانت تبدى اعجابها به ، وكانت ذات ابنة من زواج أول هين جين كليرمون . وقد اجتمعت الأسرة فى انتظار زيارة شلى وزوجته لم يتخلف منها الا مارى ، التى تزوجها شلى من بعد ، لأنها كانت على سفر فى ايفوسيا . وقد ربطت هذه المقابلة الأولى بين شلى وزوجته وجدوين وأسرته بأقوى الروابط . على ان فانى وجين ، وكانتا فتاتين ذواتى جمال وعلم ، ما لبثتا أن رأتا شلى واستمعتا اليه حتى أظهرتا غاية الاعجاب بجمال نفسه وسمو ذهنه وتوقد خياله . وحتى شعرت كل واحدة منهما فى أعماق نفسها بميل نحوه دفعها الى التقرب منه والعمل لاجتذابه ، وشعر هو من ناحيته بأنهما أكثر من هاريت معرفة وأقدر على تتبع البحوث الفلسفية وتذوق جمال الشعر .

ومن طريق أسرة جدوين تعرف الى أسرة نيوتن ، وكانت أسرة متأثرة بتعاليم الثورة الفرنسية وبالثقافة الفرنسية الى حد ملك لب شلى . وكيف لا تملك لبه ولم تقف عند التهذيب تأخذ منه بأعظم نصيب ، بل ذهبت الى أبعد من ذلك فطبقت فى كثير من نظم حياتها مبادىء الانسانية التى أعلنتها الثورة . لم يكن أحد من أفرادها يأكل اللحم وكانوا جميعا يميلون الى ناحية الحياة الطبيعية التى دعا روسو اليها بقدر ما تسمح به ظروف الحياة . ومن ذلك أن كانوا يتركون أطفالهم عراة ما داموا فى الدار . وقد قارضوا شلى اعجابا

باعجاب وتقديرا بتقدير . وشاركتهم فى ذلك آخت لمسز نيوتن تدعى مدام دبوانفيل تربت هى وابنتها فى فرنسا ونشأت على تعاليمها . وكذلك استطاع أن يجد فى المدينة منجاة من تلك الوحدة التى أثقلت كاهله فى لنموث والتى اضطرته الى هجر تلك البقاع الجميلة المحبوبة التى ألهمته خطابه الى لورد اللنبرا والتى كان يتمنى لو أتم فيها قصيدته (الملكة ماب) .

وزاده أنسا الى المدينة وحياتها أن استطاعت زوجته ، أو أختها اليزا على وجه أصح ، أن تجعل عيش مسز هتشنز معهم محالا حتى لتطلب هى مغادرتهم شاكية ما أصابها بسبب دعوة شلى اياها من انقطاعها عن المدرسة التى كانت تعمل فيها ومن سوء سمعة زعمت انها علقت بها لاتصالها برجل هو من الجمعية موضع الريبة . ولقد اقتطع لها شلى من أربعمائة الجنيه التى كان يعيش عليها مائة كاملة ورتبها لها لتعيش منها برا بها وتقديرا لتبعته فى دعوتها . وعلى أثر سفرها عاد الى جو الاسرة طمأنينته وعاودت هاريت ابتسامتها وعادت هى الى تغريدها . ومع ما كانت تلمح اليه بعض فتيات جدوين من ميلها الى التجمل بما لا يتفق مع بساطة الحياة الطبيعية ، ومع ماكن يتهامسن به مشفقات على شلى من أنه لم يتزوج الشابة التى تسعده وتلهمه ، فقد ابتهج هو بعودها اليه وفتح لها من جديد كل قلبه . ثم زاده بها شغفا أنها حملت ، فود أن يستعيد واياها ألوان متاعهما السابق . لذلك هجرا العاصمة ومعهما أليزا وسافرا الى أرلندة والى الغال لا يبتغيان من رحلتهما هداية أحد ولا الدعوة الى جديد ، وانما يرجوان أن تحدثهما أماكن شهدت غرامهما بأهازيج هذا الغرام لتزيد فى أنغامه الثائرة من حنايا

جوانحهما ما يزيدهما صبابة وهوى • وكانا سعيدين طوال رحيلهما مطمئنين الى حبهما • على أن مادعا فى الحقيقة الى هذه السفرة ثورة قامت بنفس شلى جعلته يحس فى أعماق نفسه من غير أن يستظهر أمام بصيرته أن شيئا قد اندس بينه وبين هاريت يوشك أن يفصل بين قلبيهما وأن يبتر صلة حبهما • وكان رجاؤه أن يعود الى ملك عصفوره اذا أزال من نفس عصفوره الوهم أن احدا ينازعه فيه • وكان رجاء هاريت أن تعود الى ملك صاحبها وأن تنزل به الى مستوى النـاس الذين يعرفون للحياة المادية قيمتها ويعملون على الاستمتاع بكل مظاهرها على نحو ما يستمتع غيرهم بها •

وتقدم بهاريت الحمل ، فلم يك بد من عودهم الى العاصمة مرة أخرى • ووضعت بنتا أسموها (يانت) جعلت أمها أشد حرصا على صلاتها بالجمعية وعلى محاكاتها اياها • وفيم كان زواجها من حفيد البارون شلى صاحب الثروة الضخمة والضياع الواسعة اذا كانت لا تطمع فى حياة ضريباتها النبيلات ؟ بل فى حياة العامة من الناس ؟! ولعلها كانت لا تغلو فى هذا الميل لو أن أختها اليزا لم تكن دائبة التحدث لها عنه والعود بها الى أن ذاك كان كل رجائها ورجاء أبيها من صلتها بشلى • واضطر هو آخر الأمر الى الاذعان لمشيئتها. فاقتنى لها عربة ولم يرفض أن يصحبها مرة الى بائع الجرائر وأخرى الى صانعة القبعات • ثم ألحت عليه ، وعاونتها اليزا فى الحاحها ، أن يعمل على استعادة صلته بأبيه • واضطرته ، فكتب له يرجو زوال ما بينهما من قطيعة • لكن هذا السعى أخفق أن أصر مستر تموذى على أن يعلن ابنه النزول عن آرائه والعود الى حمى الجمعية ونظامها • وأحفظ رفض شلى شروط أبيه قلب أليزا وقلب هاريت

وزاد فيما بين الرجل وزوجه من شقة خلف كان لا يزيدها تعاقب الأيام الا انفراجا . وكان من أثر ذلك أن جعل شلى يجد المسرة فى مقامه بين أسرتى جدوين ونيوتن وفى السفر وحده الى حيث تقيم مدام دبوانفيل مع ابنتها كورنليا ترنر يقضى فى ضيافتهما أياما وأسابيع . بل لقد أقام عندهما فى احدى الضيافات شهرين متتابعين تاركا هاريت وأختها ينعمان بما تشاء أهواؤهما التى هوت الى مستوى أهواء الجماعة الانسانية . وكان اعجابه بكورنليا يزداد يوما فيوما حتى انقلب حبا وحتى فكر فى اختيارها رفيقة حياته .

لكن أسرة نيوتن كانت ، برغم حريتها فى التفكير وتطبيقها صور تفكيرها فى طعامها وفى حدود المنزل ، أسرة ارستقراطية النزعات فى علاقاتها المدنية ، فلم يرقها هذا التفكير من جانب شلى فى مخالطة كورنليا . وأدرك هو هذا فاكتفى بسعادته بين أولئك السيدات الرشيقات البالغات من عذوبة النفس وسمو الادراك ما لم يكن يجده الا فى جماعة جدوين . على أنه أدرك وجوب الانقطاع ولو الى حد عن تكرار زياراته لهؤلاء وأولئك وآكب حتى فرغ من (الملكة ماب) وقد أودعها كل ما دار فى نفسه عن الحياة من خواطر وما وقع عليه أثناء مطالعاته من معارف وأفكار وجعلها كأنها كتاب الرسالة التى ظن أن القدر ألقى عليه ابلاغها للناس . وكم كان غضبه لتدهور عقلية الجماعة شديدا حين قابلوا الملكة ماب بفتور لم تتخلص من أثره بعد أن علا فى الشعر نجم شلى . بل لقد ظلت حتى اليوم منظورا اليها على أنها دون ما أبدع بعد ذلك من معجزات الشعر بكثير .

ولقد كان واجدا عن فتور الجمهور بازاء قصيدته عزاء لو أنه

وجد فى هاريت أو فى غيرها عطفا عليه يقوى عزمه ويشد قلبه . لكن هاريت كانت على العكس من ذلك قد أمعنت فى اهماله حتى لم تأب الظهور فى الجمعية مستندة الى ذراع الضابط رايان الذى جعل يتردد عليها بحجة أن له بأختها اليزا معرفة قديمة . وقد حاول شلى أن يسترد قلبها وأن يحول بينها وبين الانحدار الى أعمق مما انحدرت اليه ، لكنه ألفى هـذا القلب تحجر فلم تعـد تهزه بازائه عاطفة ولا يحركه نحوه ذكر للماضى ولا رجاء فى المستقبل .

وانه لفى يأسه من هذه الناحية اذ أقبل عليه جدوين يستعينه فى متاعب مالية أعانه شلى من قبل على مثلها . وطار شلى الى داره راجيا أن يجد فى صحبة جين وفانى بعض السلوى عن عقوق هاريت وجحودها قداسة حبها . ولم يخنه القدر ولا نبا به حظه هـذه المرة . فقد طالما تحدث اليه جودوين عن ابنتـه مارى وذكائها ونشاطها وحسبها المعرفة ومثابرتها على النهل من موارد العلم ، ولطالما وصفتها له جين وفانى على أن ذكاءها يعدل جمالها . وما كانت أشد حاجة شلى ليجد الملاك الذى يجمع الى الجمال الذكاء والى عذوبة الروح سمو النفس والى طهارة الضمير عظمة القلب ، والذى يضىء جمال وجهه بما فى الوجود من قوى الفضل والخير الكمينة مبعثرة فى ثناياه . ما كان أشد حاجته الى أن يهب كل ما فى قلبه من حب للوجود لتلك الجميلة التى يضىء وجهها بكل جمال الوجود . وألفى مارى ساعة وصـل الى بيت أبيها قد عادت من ايقوسيا وجلست بين جين وفانى اللتين قدمتاه اليها وذكرتاه بحديثهما عنها كما ذكرتا له انهما حدثتا أختهما عنه . ولم تلك الاسويعة تحدثت مارى اليه فيها حتى سحرته عن نفسه ، فجعلته يرى فى جمالهـا

وشبابها ورقتها تلك الرشاقة النسوية مجتمعة الى النشاط والطلعة الذهنية التى تميز الشباب . اجتماعا كان يراه دائما صورة الكمال الانسانى فى خير ما يستطيع الفن أن يكون . والحق أن مارى كانت ذكية الجمال تنطق قسمات وجهها الرقيقة غاية الرقة بما تنطوى عليه جوانحها من أنفة . وتنم عيونها الكستنائية اللون عن شىء من الألم لم يعرف شلى مصدره الا بعد ما علم أنها تزور كل يوم قبر أمها تقرأ عنده كتبها وتستودعه همها وشجنها . وقد أجابت طلبته أن يصحبها كل يوم الى هذا القدس تنطوى صفائحه على أقدس حب امتلأ قلبها به منذ طفولتها . وأمام هذا القدس ارتبط القلبان اللذان جعلا كل يوم دأبهما الصلاة له : ارتباطا وتعاهدا على أن يكون كل منهما لصاحبه حتى آخر الدهر .

ولما علم جدوين بما بين ابنته وشلى حال بينهما ومنعه عن بيته . فأجج بذلك نيران قلبه وجعله يعتزم اصطحابها والفرار واياها . وأيقن ان لن يؤنبه ضميره من ناحية هاريت بعد ما ظهر منها أنها لا تعنى بغير ماله . فدعا بها من الريف الى لندرة وأخبرها بعزمه وبأنه جعل لها راتبا يكفيها عيشها . لكن العصفور رقيق التكوين فلم يحتمل الصدمة فمرض ، ثم حاول أن يسترد صاحبه اليه فلم يفلح أن كان قلب صاحبه قد أصبح فى ملك غيره .

— ٤ —

كانت أبواب أوربا قد فتحت أمام الانجليز بعد ذهاب نابليون الى البا ، فلما أبلت هاريت من مرضها اتفق شلى ومارى وصحبتهما جين أن كانت تشعر بميل نحو شلى فسافروا الى سويسرا وجاسوا خلالها حتى لوسرن . على أن مقامهم بين جبالها وعلى شواطىء

بحيراتها لم يطل أكثر من ستة أسابيع عادوا بعدها الى بيت صغير على شواطىء التمس أقام ثلاثتهم فيه • ولقد أدى هذا الفرار ومعاشرة شلى لمارى من غير زواج بينهما لمقاطعة جدوين اياه وتحريمه بيته عليه وعلى اللتين فرتا معه ، وذلك رغم ما كان لشلى على جدوين من فضل امداده بالمال فى ظروف كان هو وزوجه هاريت فى أشد الحاجة اليه • بل لعل هذا الاسراف من جانب شلى كان أهم ما غير قلب عصفوره عليه ودفعها الى الحرص على أن تمتع من الحياة بما يمتع به غيرها من مثيلاتها مما كان يراه زوجها سخفا غير لا ئق بالنفوس السامية • ولم يكن جدوين وحده هو الذى قاطعه ، بل قاطعته كذلك أسرة نيوتن ومدام دبوانفيل ، وانقطع عليه كل سبيل لرؤية كورنلياترنر • ولم يبق له من أصدقاء يزورونه غير صديقه القديم هوج وصديق استحدثه فى الزمن الأخير يدعى بيكوك •

على أن عزلة شلى مع خليلته وجين لم تحل دون التهاب قلبين بحبه التهابا دفعهما الى مايشبه الجنون • فقد شعرت زوجته هاريت وستبروك من يوم أعلن اليها عزمه على الاتصال بمارى جدوين أن ضرام الحب الذى كان قد خبا فى قلبها ، حتى صارت لاترى عليها من بأس فى التحبيب الى أمثال الضابط ريان ، تلهبه الغيرة من جديد • وأى شىء أفتك بقلب امرأة من رؤيتها امرأة أخرى تسلبها رجلها وتسلبها معه هناءها ومجدها ؟ انها لترى حقا لها أن تعذب من تحب وأن تصد عنه وأن تلاطف غيره • ولترى واجبا على محبها أن يرى فى صدها من علائم الدلال ما يقتضيه مضاعفة التودد لها والاذعان لكل أمرها والتماس الصفح عما دعا الى هجرها ، وان

لم يك شيء قد حدث يوجب التماس الصفح عنه . بل لترى واجبا كذلك عليه ألا يقتضيها اسعاده أو تهوين الحياة عليه . فان فعل فهو أثر لا قلب له والأنانية ملء نفسه . أما ان رأى فى امرأة أخرى ملاك سعادته فأحبها فتلك الجريمة والطامة الكبرى ، وتلك المرأة الغادرة هى أحط من حملت أرض أو أظلت سماء . وكذلك كانت مارى فى رأى هاريت . وقد ازدادت لها بغضا وعن شلى اعراضا حين بعث اليها يستضيفها عنده فى بيت مارى . أف لهما من منافقين ! . وأف لهذه اللعينة مارى التى لا تراها هاريت تعدلها رشاقة ولا جمالا ولا عذوبة صوت ولا حلاوة روح . بل التى لم تؤت أى حظ من الجمال ، بل التى تستحق أن تسحق وأن تعض بالأسنان وتمزق بالأظافر . ولئن كان شلى قد ضعف أمامها كل هذا الضعف فلتنتقمن منه هاريت شر انتقام .

كان ذلك شأن هاريت . أما فانى املاى فقد جعلت تحس فى بيت جدوين وحدة ممضة مؤذية . وتشعر بنفسها غريبة ليس لها فى البيت أم ولا أب ولا صديق ، ويلذعها قلبها بذكر ما كان يفيض به ازاء شلى من حب واخلاص . فها هو ذا شلى قد آثر مارى عليها . وهذه جين قد وجدت فى نفسها الجرأة لتصحبهما . أما هى فلم يبق لها فى الحياة الا أن تنظر الى أشباح اليأس تحيط بها ، وأن تتمنى لشلى فى نفس الوقت الهناء والسعادة . وكيف تراها تحمل له أى ضغن ولم يكن تفضيله مارى جدوين عليها الا حلقة من سلسلة سوء الحظ الذى أحاط بها منذ مولدها حتى لجعلها تؤمن بأنها ولدت تحت طالع من النحس لا سبيل لمغالبته . ألم يمت أبوها فتزوجت أمها من جدوين ثم ماتت هى الأخرى تاركة اياها يتيمة

الأبوين لامعين لها فى الحياة الا بر هذا الرجل الذى استبقاها عنده رأفة بها واشفاقا عليها ! فاذا فضل عليها شلى أختها لأمها فليس ذلك أقسى ما أصابها به القدر • وبحسبها أن تظل على اخلاصها له ورثائها لما وصل اليه من فقر اضطره ليعيش وامرأتين معه عيش كفاف ودون الكفاف • بل لقد أثقلته الديون حتى اضطر دائنوه الى أن يلجأوا للقضاء فجعل رجاله يتعقبون شلى يريدون القاء القبض عليه كى يفى بديونه أو يسجن • ولولا يقظة فانى واخطارها شلى بالأمر وفراره من متعقبيه لذهبوا به الى السجن ، ثم لما تحرك قلب أبيه لاستخلاصه بعد الذى كان بينهما من قطيعة وجفاء •

وناء شلى بهذه الوحدة وثقل عليه حملها وأنهكه الى جانبها هذا العيش الضنك الذى لم يتعود فى نعومة أظفاره ، فانهدت قواه واندس المرض الى صدره وأظلمت الدنيا فى عينيه ورأى شبح الموت مقبلا يبتلعه • كم كان من قبل سعيدا مع هاريت ! وكم كان سعيدا بحديث صديقاته والمعجبات بنبله وجماله وذكائه وسمو روحه ! ثم كم كانت السعادة تفيض عنه منبعثة اليه من قلب الرفيقة الجميلة العطوف مارى ! وها هو ذا يرى نفسه معها منفردا يتحاشاه الناس ويفرون منه فرارا ثم لا يكون له عنهم من بديل الا مرض قاتل • يا لليأس ! أيتها الآلهة ، آلهة الخير والنعمة والسعادة ! أحق أنك جميعا قد تخليت عن هذا الرجل لغير شىء الا أنه صديق الفضيلة المخلص ونصير الحرية الصادق ! أو حق أنك حكمت عليه بالموت لأن جمعية النفاق والوهم والباطل قد ابتعدت عنه ، خشية أن يفضح نوره ما فى ظلماتها من رجس وشقاء وجريمة ؟ ليكن • فهذه مارى ما تزال تحنو عليه وتبعث اليه من

دفء قلبها المملوء حبا ما يستبقى خيط الرجاء معلقا فوق هاوية اليأس .

لكن خيط الرجاء هذا لم يمنعه من أن يرى الهاوية وكل ما حوته . بل لم يمنعه من أن يحدق فيها ببصره ويستمد من مناظرها المؤسية الهاما ساميا أوحى اليه أولى قصائده الوجدانية الكبرى : « الاستور أو روح الوحدة » . وبطل هذه القصيدة شاعر شاب طوف فى الآفاق وجاب أقطار العالم أن رأى الوسط الذى يعيش فيه والجو المحيط به لا مهبط فيه لوحى الهدى ولا مبعث لسمو الالهام . « وأدت به خطاه طائعة مسبح أفكاره السامية الى زيارة ما خلفت الأيام الخالية من خرائب الآثار . فزار أثينا وتير وبعلبك والبطيح الذى كان مقاما لبيت المقدس وأبراج بابل المهدمة والاهرام الخالدة ومنفيس وطيبة وكل ما تخفيه تلال الحبشة السوداء الصحراوية من عجائب النقوش على المسلات والمقابر وآباء الهول المحطمة . وهناك خلال المعابد الخربة حيث تقوم العمد والصور العجيبة لما هو أعظم من الانسان ، وحيث ترقب شياطين الرخام أسرار نيران الزوال . وحيث يعلق السلف أفكارهم الصامتة على صمت الجدران المشتملة اياد — هناك ، أمهل الخطا مستذكرا العالم فى صباه محدقا طوال النهار المحرق بهذه الصورة الصامتة . وما كان القمر اذ يملأ الصالات العجيبة بظلاله المتموجة ليقفه دون متابعة استذكاره . بل ظل يحدق ويحدق حتى أضاء خلاء عقله نور كأنما هو الالهام القوى جعله يرى من خفايا الزمن يوم ولد ما يهز النفس» وهناك جاءت له صبية من بنات العرب بطعامه فكبلها غراما . لكنه ما لبث أن عاود تسياره خلال بلاد العرب والعجم والهند ، جوابا

ربوع الأرض وأقطارها باحثا عن الحقيقة ، حتى اذا كان يوما مستلقيا خلال غابة تظله رأى أثناء نومه « صبية مبرقعة تجلس الى جانبه وتتحدث فى أنغام مهوبة خفيضة بصوت كأنه صوت روحه حين يستمع اليه فى هدأة تفكيره .. وكانت المعرفة والحق والفضيلة مدار حديثها . كذلك كانت الآمال الكبرى فى الحرية المقدسة وما الى هذه الآمال من أفكار هى أعز الأفكار عليه . ثم كان الشعر أن كان هو شاعرا » . وتجلت الصبية له فى خلال هذه الآمال والأفكار والمنى فاذا جمال شخصها عدل جمال نفسها . واندفع محاولا ضمها اليه والامساك بها ، لكنها تراجعت ثم ابتلعتها ظلم النوم . ولم تجده محاولته اعادتها الا أن أيقظته الهزة فاذا القمر ينحدر الى المغيب وتباشير الضياء ترتفع خلال سجوف الليل . « اذن ضاعت هذه الصورة الجميلة ، وضاعت الى الأبد فى تلك الصحراء الواسعة لا طرق فيها ، صحراء النوم الكالح ! أفيؤدى باب الموت الأسود الى جنتك العجيبة أيها النوم ؟! » وينطلق الشاعر مفكرا أثناء تطوافه مستذكرا صورة النوم الجميلة ملفيا جمالها فى كل ما تخلع الطبيعة على الوجود من جمال . وفيما كان عند اليونان بصر بزورق لا مالك له فألقى بنفسه فيه ودفعه الى لج الموج يتقاذفه رجاء أن يجد الى الموت سبيله . وتدافع الموج والزورق حتى دفع به الى جبال القوقاز فى نهر تحيط به أحراش وغابات ، وهو خلال ذلك كله ما يكاد ينجو من خطر حتى يفجؤه خطر جديد يثرب له الأمل فى النجاة بالموت والعود الى صورته الجميلة التى أراه النوم اياها . وفى هذه السياحة يشدو شلى متغنيا ببهاء الطبيعة وحلو حديثها العذب الى نفس بطلة الشاعر المشوق للموت

حتى يصل ببطله الى غايته . وفى سياحة الزورق هذه بين موج البحر وفوق لجة النهر يصف شلى فى النهر الذى أبدعه خياله ما نقل بصره الى حسه من آثار حين عوده من سويسرا راكبا نهير الير ونهر الرين وما على شواطئهما من بدائع الجمال ؛ ويصف منابع التمس التى زارها بعد عوده الى انكلترا وحين هذه المرض ؛ ويصف تلك المناظر الساحرة التى تهز القلب والفؤاد — مناظر شواطىء التمس كانت وما تزال مثال جمال قل فى الجمال نظيره .

قال شلى مقدما قصيدته هذه لقرائه : « والصورة ليست خالية من العظة لأبناء الحياة الحقيقيين . ذلك أن الشاعر فى عزلته وانحصار خواطره فى نفسه ، تثأر منه شياطين عاطفة قاهرة ما تزال تطارده وتخب به لتبلغ واياه الى الدمار السريع . على أن الذين لا يخدعهم خطأ سخى ولا يدفعهم ظمأ قدسى الى شك المعرفة ؛ ولا تضللهم خرافة باهرة ؛ ولا يحبون شيئا على هذه الأرض ولا يتعلقون بأمل وراءها ؛ ويقفون بمنأى عن التعاطف مع أبناء جنسهم ، لا يسرون بأفراح الانسان ولا يأسون لأحزانه — هؤلاء وأمثالهم يبوءون بلعنة عادلة : يذوون لأنه ما من أحد يشاطرهم الاحساس بطبيعتهم ، فهم أموات الأحياء لا هم أصدقاء ولا عشاق ولا آباء ولا هم من أبناء الدنيا ولا المحسنين الى بلادهم — وأخلق بالذين لا يحبون بنى جنسهم أن تكون حياتهم عقيمة وأن يهيئوا لأرواحهم فى كهولتهم قبرا موحشا » .

وانك لترى كل تلك المعانى التى أوردتها المقدمة متجلية فى أبهى صورها وأعظمها جلالا وروعة فى هذه القصيدة التى لا تزيد على سبعمائة وعشرين بيتا ، والتى تمثل حياة النفس لعباد الوحدة

وعشاق الطبيعة . مصورة فى ألحان سماوية الموسيقى الى حد يحملك معه على موج أنغامها حتى لينسيك فيها جمال الأنغام بديع الصور ولينسيك ابداع الصور روائع التفكير ؛ ولتنسيك روعة الفكرة جمال النغم ثم تتزاوج الأنغام والصور والأفكار فيلد تزاوجها صورة الشاعر الشاب شلى فى وحدته المنقطعة وأمله المتهدم فى الحياة ومواجهته الموت فى رعدة تتغلب عليها قوة نفسه ، وانتصاره بعد ذلك على الألم وعلى المرض وعلى الوحدة وعلى الموت بهذه القطعة الخالدة من موسيقى شعر الآلهة .

وفيما كان شلى فى هذه الحال توفى جده السير بيش وآل اليه بالوصية ايراد سنوى يبلغ ستة آلاف من الجنيهات . ولو انه لم يكن فى شغل بتفكيره وبشعره ، ولم يكن ينظر الى مزيد المال على أنه جريمة تدفع الى النقص وتزرى بالفضيلة ، لناصب أباه الخصومة حتى يصل الى كل ما اوصى به جده . لكنه لم يرد الانقطاع لعرض الدنيا اذا وجد ما يسد حاجته ويكفيه شر دائنيه . لذلك قبل أن يرتب له أبوه من ذلك الميراث كله ألف جنيه فى السنة تكفيه وتكفى مارى ، وتكفى من يلوذ به من صحبه . وردت اليه هذه الطمأنينة المادية شيئا من سكينة النفس كان فى أشد الحاجة اليه ليتغلب على مرضه . وتغلب بالفعل عليه . وبدأ فى سماء المجد يتألق له نجم ان لم يكن ساطعا سطوع نجم بيرون فقد كان موضع التقدير من بيرون نفسه . على أن الأقدار لم تكتب لنفسه طول سكينة يوما من الأيام . فقد بدأت مارى على جمال حكمتها ورجاحة عقلها تحس الغيرة لوجود جين معهما فى البيت . وزاد لهيب هذه الغيرة ضراما حين حملت فلم تستطع ملازمة شلى مما جعل جين

تصحبه فى جولاته وتعود واياه متوردة الخد فياضة القلب بما يبعثه شلى الى كل ما يتصل به ومن يتصل به من جمال الوجود • وما عسى أن يصنع شلى بازاء غيرة مارى الا أن يطأطىء لارادتها ويخضع لمشيئتها ، وبخاصة أن جعلها الحمل فى حالة عصبية تثير معها كل مناقشة اياها لمشيئة تعلنها دموعا تذرى وأنات ألم تقطع النياط الحساسة لقلب محبها الصادق الاخلاص ، والذى لا يرى مع ذلك فى الحب معنى الاثرة الذى يذكى الغيرة ، بل معنى التسامح التام والاشتراك مع كل من فى الوجود فى الاحساس والعاطفة • واضطرت حين لمغادرة المنزل وفى نفسها من الحب لشلى ما بغض مارى اليها ودفعها للتفكير فى الانتقام لانفتها الجريحة • ولم يعوزها طول بحث لتدبير الانتقام • فاذا كانت مارى تعتز بخليلها وما له من نبل ومجد ومال فلتتخذ هى خليلا لها أعرق من شلى نبلا وأعظم مجدا وأكثر مالا • وليكن هذا الخليل لورد بيرون نفسه • ولم تلق فى تحقيق غايتها عنتا • فلم يكن بيرون ينظر للحب نظرة شلى ولا كان يعبأ بالعفة ولا بطهر القلب • على أن مارى استراحت حين علمت بنجاح صاحبتها ولم يبق بعد عندها موضع للغيرة منها •

وظلت مارى فى سكينتها حتى وضعت طفلا لثمانية أشهر من الحمل فلم تقدر له الحياة • ولم يطل بها الحزن عليه أن حملت مرة أخرى وان وضعت غلاما أسمته باسم أبيها وليم • لكنها برغم سعادتها بهذا الطفل الثانى ورغم شعورها بكل ما فى الامومة من مزيد فى الحياة ، جعلت تحس وحدتهما وسط الجمعية الانكليزية تزداد وطأتها ثقلا عليها وعلى برسى • وأكثر من الشعور بالوحدة كان شعور آخر يهيج غيرتها بمقدار ما يهيج آلام زوجها ويبعث

الى نفسه نوعا من لذع الضمير طالما حاول اخفات صوته ، ثم ظل مع ذلك دائبا على تعذيبه . فقد أصبح هجره هاريت موضع حديث الناس وموضع لغو أصدقائه . وكان اجماعهم منعقدا على أن البائسة لم تأت اثما ولم تجن ذنبا ، وانما الذنب والاثم على شلى الذى هجرها وتبدل بها غيرها وظن أن لم تبق له جريرة عندها مادام قد ضمن لها ولأبنائها منه رزقها . وألح بالزوجين هذا الشعور فانتهيا الى استحالة المقام بانكلترا وضرورة هجرها الى حيث لا يعلم قصتهما أحد . واذ كانت هواجس مارى قد هدأت من ناحية جين وكانت هذه وحدها هى شريكة حبهما وصلتهما منذ نشأتهما ، فقد سمعا اليها حين اقترحت عليهما السفر الى سويسرا للمقام عند ضفاف الليمان على مقربة من جنيف . وزاد مارى اطمئنانا الى اقتراح صاحبة سرها ان علمت انما حملها عليه اعتزام بيرون أن يسافر الى تلك الناحية فرارا من اتهام الجمعية الانكليزية اياه بمعاشرة اخته اوجستا . فلن تعود بين جين وشلى اذا أية صلة ما دام بيرون سيقوم منها مقام شلى من مارى . واذا فليسافر ثلاثتهم الى ضاحية جنيف ولينتظروا هناك مقدم النبيل العظيم .

ووصل الجوار ثم وصلت الصداقة ما بين بيرون وشلى ، وزاد الصلة بينهما أن ظلت مقيمة عند شلى مترددة آناء الليل وأطراف النهار على بيرون . على أن أمتن ما قوى صلتهما كان الوسط الذى يعيشان فيه ، وسط سويسرا الشعرى البديع الذى يوحى الى النفس والقلب والفؤاد ما يملؤها شعرا ويزيدها للجمال قدرا . وكان هذا الوسط ، أول تعارفهما ، فى أجمل فصوله . فقد نزلا جنيف ابان بشائر الربيع فى مختتم ابريل ومفتتح مايو حين تبدأ

حياة الطبيعة يقظتها من سنة الشتاء . وحين تبدو أوراق الشجر فى زهو خضرتها الجديدة ما يزال لها كل صباها وكل ما للصبا من بهاء وروعة . وحين الثلوج ما تزال تغطى قمم الجبال وتكسو عوالى سفوحها كساء يتباين ضياؤه أثناء النهار ويكسوه شفق المغيب كما يكسوه مطالع الشمس ، من الأحمر القانى الى الأحمر المتورد ، بما يملأ خيال الشاعر بأجمل الصور ، وحين تنعكس سفوح الجبال وقممها الرفيعة على سطح مياه البحيرات حين يكون هذا السطح هادئا ، فاذا دفعت الريح الموج متلاطما فوقه رأيت السفوح وأشجارها والقمم وثلوجها تموج متلاطمة هى الأخرى . فوى هذا الوسط صلة الشاعرين أن وجدا فيه خير مسرح لخيالهما المتوقد وأن شعرا فى شغاف قلبيهما بحب له يزداد استعارا كلما ازدادا من هذا الجمال الساحر نهلا . وذلك فرق ما بين حب الطبيعة وحب المرأة ، بل هو فرق ما بين حب المرأة وما بين حب كل جمال غيرها فى العالم . حب المرأة أنانى أثر غايته الحيازة والملك والمذلة والاسترقاق . فكل شركة فيه تنتهى الى الجريمة عهرا كانت الجريمة أو غيرة تنتهى الى القتل وماهو شر منه . أما حب الجمال فى غير المرأة فهو الحب الذى يفهمه شلى وينادى به ويدعو الى الشركة فيه . هو تقديس الجمال فى كل مظاهره والاشتراك فى هذا التقديس ليزداد بالاشتراك سموا وجلالا . وكم كان لجمال سويسرا واشتراك شلى وبيرون فى تقديسه من أثر فى شعرهما . على أنه مع ذلك لم يقرب بين روحيهما ، لأن كل واحد منهما كان يختلف عن الآخر فى نظرته الى الحياة تمام الاختلاف . فقد كان عقل شلى وقلبه وشخصه وكل وجوده شعرا خالصا . كان لا يعرف شهوات

الانسانية ، ولا يخلط بنفسه وضيع عواطفها ، وكان لذلك يرى جمال الكمال ملموسا محسوسا ، وكان يصور كل ما يقع عليه حسه وكل ما يجيش بقلبه فى أنغام من الشعر والنثر لا أثر لغير روح الجمال وعبادته فيها . وانك لتعجب حين رجوعك الى ديوان شعره والى رسائله وكتبه ، اذ ترى كل سانحة من السوانح وكل منظر من المناظر وكل ما اتصل بشلى فى يقظته وفى نومه ، قد اكتسى ثوب الجمال ، واذ ترى هذا الجمال مصورا أنغاما قدسية يختلط عليك حين تقرؤها أشعر هى أم موسيقى أم رسم وتصوير . أما بيرون فكان شاعرا ، ولكنه كان انسانا له كل شهوات الانسان قوية غالبة عليه متحكمة فيه ، وكان يرى الجمال من خلال هذه الشهوات فيشدو به فى شعره ساميا بهذه الشهوات نفسها الى سماء الشعر ملبسا اياها شفوف الجمال . وكان بيرون مشغوفا بالمجد تتسلط عليه شهوته الى حد أشفق معه عليه شلى كما أشفق عليه لضعف روحه ونزوله الى مراتب الانسانية الوضيعة رغم ما أنعمت به آلهة الشعر عليه من جمال فى النفس وسمو فى الفكر . وكم حاول أن ينزع به الى غير ما تدفعه اليه شهواته وأن يجذبه الى ناحيته ، ناسيا أن ليس فى مقدور انسان تحوير طبعه . ولم يتغير عليه بعد ما افترقا ، بل جعل يراسله طمعا فى انقاذه من براثن شهواته التى كانت فى نفس الوقت مصدر كل وحيه والهامه .

وبرغم ما امتلأ به قلب شلى من جمال سويسرا فقد كان دائم الحنين الى بلده . وكان حنينه قويا منذ أول مغادرته شواطئها وان كانت هى التى ألجأته الى هجرها والفرار منها . قال فى خطاب بعث

به الى صديقه بيكوك يعبر عن تحنانه : « انكم لتعيشون على شواطىء نهر مطمئن بين تلال خفيضة تغطى الغابات سفوحها . ثم انكم لتعيشون فى بلد حر لا يحول بينكم وبين ما تعملون قهر ، وتطمئنون فيه الى ما يقع فى ملككم . وما بقيت هناك ممالك وما بقيت اعتبارات الأثرة التى تنطوى فكرة المملكة عليها ، فأنا واثق من أن انكلترا أكثر الممالك حرية وتهذيبا . ولعلك كنت حكيما فى اختيار طريق حياتك . على أنى وعدت واحتذيت مثالك فلن آسف على ما رأيت من ممالك أخرى . فلدينا لاريب كثير من الخشب والطيب ، وكثير يزدرى وكثير يمكن السمو به نحو الكمال . لكن ذلك كله لا يعرفه ولا يحس به من لم يبرح حدود وطنه . وما دام الانسان على ما هو عليه فان التجربة التى جربها لن تدعوه لاحتقار الأمة التى ولد فيها . بل على العكس من ذلك ، هو لن يقدر ما يربطه بوطنه من حب حتى يجعله الغياب عنه أشد شعورا بجماله . فشعراؤنا وفلاسفتنا وجبالنا وبحيراتنا ، وقرانا ومزارعنا التى لا شبيه لها عند غيرنا - كل هذه روابط لن تنبت ولن تتحطم أو أصبح ولا ادراك عندى ولا حس لى » .

وربما فات شلى أن يذكر شيئا آخر يربطه بانكلترا ولا يقل عن كل ما ذكر قوة . ذلك عصفوره هاريت وابنته يانت وابن هاريت المنسوب اليه وان أنكر هو أبوته . فلقد كان كثير التفكير أثناء وجوده على شواطىء ليمان فى هاته التى ترك وان كان يعلم أنها فى طمأنينة مادية بما أجراه عليها من رزق وما يجريه أبوها عليها من رزق مثله . وكان يعلم من أخبارها أنها ساء سلوكها وانحدرت الى مستوى يقرب من الدعارة ، فكان يحس على نفسه فى ذلك

بعض التبعة ، ويحاول اقناع نفسه بما يزحزح التبعة عنه . ولئن كانت هاريت قد أساءت اليه أفليست بانت ابنته ويجرى فى عروقها الدم الذى يجرى فى عروقه . لكنه لم يكن يستطيع الاسراع الى مغادرة سويسرا وماری متعلقة بها جريحة القلب من سوء صنيع مواطنيها بصاحبها وبها . لذلك اقتنى بالاشتراك مع بيرون زورقا جعلا من رياضتهماعليه فوق لج الليمان مستوحى لالهامهما . وكثيرا ماكانت تصحبهما مارى وجين ، فتتغنى هذه الأخيرة بصوتها الحلو الرقيق توقيع أنغامه على موجات هواء الجبال العذب الصافى ما يزيد الهواء والبحيرة والجبال جمالا وما يزيد الهام الشاعرين روعة وقوة .

على أن جين كانت قد حملت من بيرون منذ كانا فى انكلترا وآن لها وهم فى سويسرا أن تضع طفلة دعتها كلارا اللجرا . من يومئذ بغضت الى نفس بيرون . وازداد لها بغضا حين تحدث اليه شلى فيما يريد أن يصنع بالطفلة وبأمها . وكان بيرون فى هذا الظرف غليظ القلب مغاليا فى التبجح باحتقار خليلته واحتقار النساء جميعا واعتبارهن متاعا لشهوة الرجال الى حد لم تطقه الذكية الأنوف مارى ولم تطق معه البقاء على مقربة من هذا الذى يدعوه الناس نبيلا فاذا نبله قحة ، ويحسبونه شاعر الحب فاذا حبه شهوة واذا شعره غلظة كبد حتى على ابنته . واقترن هذا الشعور عندها بعاطفة البر بأبيها ، وذكرت تعاليمه السامية وآراءه فى المودة والتسامح والحب ، وشاركت شلى فى فكرة العود الى الوطن ، فكتب الى بيكوك يطلب اليه أن يستأجر له دارا (فيلا) على شواطىء النهر وبين الأحراش والغياض .

وعادوا الى لندن وفى عزم شلى أن يستقر بوطنه طول حياته ، غير ذاكر أن لا سلطان لأحد من الناس على مصيره . جاهلا ما خبأته الأقدار له من فواجع تقض مضجعه وتضطره الى المقام بقية أيامه بعيدا عن انكلترا . فقد كانت فانى املاى تراسلهم حين كانوا بسويسرا . وكانت رسائلهم لها تبعث الى حياتها البائسة خيطا من نور الأمل فى رؤيتهم يوما من الأيام . فلما عادوا الى لندن وعاشوا فيها عيش يسار استمتعت به جين . مع وجود أمها فى بيت جودوين ترهق فانى وتعذبها فى حين كانت فانى أحق بهذا اليسار الى جانب أختها ماري . ولما كانت لا تستطيع الالتجاء الى بيت شلى لتعلق قلبها به تعلقا يجعلها لا تطيق المقام الى جنب ماري ، بعثت اليهم صباح يوم من سنة ١٨١٧ بخطاب من برستول تقول فيه : « انى ذاهبة الى مكان أرجو ألا أعود منه أبدا » . فسارع شلى بالسفر الى برستول ومنها عرف الى أين سافرت الفتاة ، وذهب الى الفندق الذى نزلت به فألفاها انتحرت بالسم وتركت خطابا تذكر فيه أن بؤسها كان سبب اختزالها أيامها وقضائها على حياتها .

وهز هذا الحادث قلب شلى وأعصابه . وزاده اهتزازا ما ذكرته مسز جدوين من أن فانى انتحرت لفرط حبها اياه حبا ضاع كل أمل فى أن يجد ما يحييه . وعن هزة قلبه يعبر فى أبيات ستة يقول فيها : « أصابت الرعشة صوتها ساعة رحلنا وما كنت أدرى إن القلب الكسير مبعثها . فرحلت ولم أعن بما ألقت من كلمات . ايه أيها البؤس ! ان هذه الدنيا الفسيحة كلها ميدانك » على أن قلبه بلغ غاية الاضطراب لحادث آخر ليس دون هذا الحادث

شناعة ولا قسوة ، ذلك أن هاريت بلغ من انخراطها فى اللهو أن حملت من أحد عشاقها وأن تقدم بها الحمل وأن شعرت اذ ذاك بما يتهددها من عار يسقطها أمام شلى ، ويرفع مارى فى نظر الجمهور عليها ، ويوقع على رأسها ما كانت تزعم أنها تدبره من أسباب الانتقام . فذهبت الى نهر ألقت بنفسها فيه ، فماتت منتحرة هى الأخرى . ولم يكن بين انتحارها وانتحار فانى الا أيام . وذكرت التيمس خبر انتحارها وسببه من غير أن تذكر اسمها . وكان هذا الخبر أقسى مما يستطيع شلى أن يطيق : دعارة ، فحمل ، فانتحار . يالله العار ! ويابؤس أبنائه بأم تلك خاتمتها ! ويابؤسه هو بحياة تسير مسرعة الذبول الى أوراق الربيع منها فتهجره ابنة عمه هاريت جروف وتعقه أخته اليزابث وتغتبط للتخلص من مس هتشنر وتتجافاه كرنلياترنر وتنتحر بسببه فانى امالاى وهاريت وستبروك . ترى ألم يأن لهذا البؤس أن ينتهى وللقدر أن تهدأ عليه ثائرته ؟ .

لكن لا ! فقد طلب حضانة أبنائه من هاريت فخالفه فى ذلك أبوها وتقاضيا فأنصف القضاء الجد ، بحجة أن عقيدة شلى فاسدة ويخشى أن ينشىء أبناءه عليها . وانما خفف من هذا الحكم أن عهد القضاء بالحضانة الى من اختاره شلى مطمئنا على اقامته فى تربية أبنائه .

وأتاح له انتحار هاريت أن يعقد على مارى وأن تعود لذلك صلته بجماعة جدوين . وكان العوز قد ألح بمؤلف (العدل السياسى) حتى صار عالة على شلى هو أيضا وحتى جعله يعود الى الاستدانة من جديد . ولم يكن جودوين وزوجه وحدهما هما اللذان كفل شلى فى ذلك الظرف ، بل أعان صديقه لى هنت وكان

له خمسة أولاد من زوجه ماريان . وأعان صديقه بيكوك كى يتابع كتابة روايات رأى شلى فى كتابتها خيرا واصلاحا للجماعة . مع ذلك كله، مع الاضطراب المالى ومع انتحار فانى وهاريت فى أيام ، ومع منازعة وستبروك اياه فى حضانة أبنائه . فقد تحصن شلى بارادته الصلب وحاول أن يقهر كل هذه الآلام ويتغلب على كل المتاعب . وشلى ، على رقته وايثاره وعبادته الجمال وتعلقه بأنغام الشعر ، كان ذا عزيمة لا تعرف المستحيل ولا تقف فى سبيلها عقبة من العقبات . تحصن بهذه الارادة وحاول أن يظهر أمام الجمعية وكأن لم تفجعه فاجعة ولم تغير الحوادث التى مرت من نفسه . فابتاع بيتا ظريفا فى مارلو أقام فيه مع مارى وابنه وابنته منها ومع جين وابنتها من بيرون . على أن الارادة الصلب والعزمة القوية تستطيعان مغالبة الوجود وقهر المستحيل ما دامت الروح التى تحركهما وتصدران عنها مطمئنة قوية لم يندس اليها ما يضعفها ويزعزع ركنها . فأما أن ضعفت الروح واهتزت قوتها المعنوية فقل على الارادة وعلى العزيمة وعلى كل قوة من قوى النفس السلام . وقد هدت الحوادث التى مرت بشلى من روحه فتضعضعت وضعفت . وشعر بهذا الضعف فانطلق ملتمسا الوحدة كى يخفى عن الناس ضعفه . والأنوف المهتز بقوة نفسه لا يشعر بجرح ينال منه مبلغ شعوره بأن يراه الناس ضعيفا مثلهم خاضعا لتصاريف القدر خضوعهم . فى هذه الساعات التى ينال المرض فيها من جسم ذلك الأنوف أو تنال الحوادث من نفسه ، يود لو أن الانسانية كلها ولو أن أقرب الناس اليه من ذويه وأهله لم يكن حوله منهم أحد ليطلع على ضعفه أو يشاهد هبوط نفسه . وجعل شلى يذهب الى جزر

التمس المنقطعة يقضى فيها نهاره وشطرا من ليله يشاهد الطيور السابحة فى الماء والمحلقة فى الجو ، ويحاول استعادة سكينته بالتحليق فى عالم الشعر واستمداد القوة الروحية من وحيه • ولم يكن فى استمداده هذه القوة يرجو غير ما كان يطمع فيه أول صباه من تحقيق سعادة بنى الانسان • فقد زادته الحوادث التى كرت عليه ايمانا بأن نظام الجماعة الفاسد هو الذى دفع الى هذه الكوارث المتوالية وتلك المآسى الفاجعة التى تذهب باللب وتصدع القلب • وكانت قصيدته الكبرى الثانية — ثورة الاسلام — والتى كان يصقل فيها من قبل أن تفجأه الحوادث تباعا ، قد فرغ منها أو كاد • فوضع قصيدة أخرى أسماها « لاون وستنا » ضمنها مسارح أفكاره فى ذلك الظرف العصيب من حياته • وضعها أثناء تلك الجولات فى أحضان الوحدة مقتضيا نفسه أن يكون فيها مثال سمو فوق المرض والألم وكل أسباب الضعف الانسانى الذى لا يليق بأمثاله ممن يؤمنون بأنهم يقبضون بيدهم على ناصية الوجود •

ولم تكن جولاته ولا كان شعره ليرد اليه طمأنينة نفسه أو ليدفع عنه غائلة همومها • بل لقد جنت هذه الهموم على صحته وردت اليه مرض صدره وجعلته يفكر جادا فى وسيلة البرء من علته • كتب الى جودوين فى ٧ ديسمبر خطابا يصف له فيه حاله جاء فيه : « وكانت صحتى أسوأ بالفعل • فان مشاعرى لتهبط أحيانا الى حد الذهول والموت ، ويبلغ بها التوتر أحيانا أخرى الى حد غير طبيعى من التهيج • ولأقتصر على مثل ما يعذبنى خاصا ببصرى • فان أوراق الحشيش وغصون الأشجار البعيدة لتبدو لناظرى بدقة

مكرسكوبية . فاذا أقبل المساء غرقت فى بحار من الهبوط وضعف الحياة وبقيت مستلقيا — فى كثير من الأحايين — ساعات على المضجع وأنا بين النوم واليقظة فريسة تهيج ذهنى مؤلم أشد الألم . ذلك أمرى الا فى قليل . أما الساعات التى خصصت للبحث فقد اخترتها بعناية من بين الساعات التى استطيع المقاومة فيها . على أن ذلك كله ليس هو سبب تفكيرى فى السفر الى ايطاليا . طمعا فى أن تنقذنى منه . كلا ! بل لقد عاودتنى نوبة صدرية . ولئن كانت قد انتهت الآن غير تاركة وراءها أثرا لوجودها الا أن هذا العرض دلنى على حقيقة المرض الذى يؤويه صدرى . ومن مصلحتى أن يكون هـذا المرض بطبعه بطيئا وان الانسـان اذا عنى بتتبع تقدمه استطاع التغلب عليه والبرء منه فى جو دافىء . فاذا عاد هذا المرض على صـورة واضحة أصبح واجبا على أن أسارع بالذهاب الى ايطاليا . على أنا انما نسافر حين يصبح السفر واجبا محتوما ، لمخالفة هذا السفر لمقاصدنا أنا ومارى متأثرين بعواطفنا نحوك . وأحسبنى فى غنى عن أن أذكرك ، فضلا عن آلام الذين يعيشون بعد موت عزيز عليهم ، بسلسلة النتائج السيئة التى تترتب على موتى . وانما يحملنى على هذه الصراحة القاسية ما بدا لى من أنك لم تدرك حقيقة مقصدى . فليست الصحة وانما هى الحياة التى أبحث عنها فى ايطاليا . ولست أبحث عنها من أجلى ، فأنا أشعر بالقدرة على نفسى ازاء مثل هذا الضعف ، وانما أبحث عنها من أجل أولئك الذين تفيض عليهم حياتى سعادة ومنفعة وأمنا وكرامة ومن بينهم من ينقلب عليه أمر هذا كله الى النقيض اذا أنامت » .

وما يشير اليه شـلى من سوء فهم جدوين اياه هو تأويل

جدوين سفر صهره الى ايطاليا بانه الفرار من معونته المالية . على أن مارى لم تبرح انكلترا حتى كفلت لأبيها عن طريق شلى رزقا يقيه فى شيخوخته ، كما كانت طوال اقامتهم فى ايطاليا لا تنفك تعينه بتخصيص ما يقع لها ثمنا للروايات التى تكتبها لمعونته ، وبدفع شلى ليزيد فى هذه المعونة جهده . ولعل احساسها بحاجة شلى الى السفر كانت أشد من احساسه هو . فقد أثقلتها جين وابنتها وطمعت حين وجودهما على مقربة من بيرون أن يضمها اليه . على أنهم ظلوا ينظمون شؤونهم ويبيعون دارهم فى مارلو ويقتضون الناس فيها ما يستطيعون اقتضاءه منهم حتى استطاعوا اعداد أهبتهم للسفر ، وسافروا فى منتصف مارس سنة ١٨١٨ قاصدين ميلانو ليذهبوا بعد منها الى البحيرات الايطالية آملين أن يجد شلى فى شمسها وهواء الجبال عندها ورقة الطبيعة المحيطة بها ما يشفى صدره ويرد اليه سكينة نفسه .

— ٥ —

غادر شلى انكلترا قاصدا ايطاليا فى مارس سنة ١٨١٨ . غادرها مستصحبا زوجه مارى وابنيهما وليم وكلارا ، ومستصحبا كذلك جين كليرمون التى كانت تطمع فى أن ترى ابنتها من بيرون فتروى غلة قلبها الظمىء شوقا لها . ومروا بليون فجبال الألب حتى نزلوا ميلانو . ومن هناك قصدوا البحيرات الايطالية التى كانت منذ القدم مغنى الشعراء وملهمة الموسيقيين والمصورين ورجال الفن جميعا . وأعجب شاعرنا بهذه البحيرات و (بكومو) منها بنوع خاص ، حتى لرأى أن ليس يعدلها أو يزيد عليها جمالا غير بحيرات كلارنى الارلندية . على أنهم لم يجدوا فى منطقة البحيرات

الدار التى تعجبهم فعادوا الى ميلانو حيث وجد شلى فى كنيستها ملجأ تطمئن له روحه التى كانت ثائرة من قبل على كل كنيسة وعلى كل دين • وكنيسة ميلانو جديرة بأن تطمئن النفس لجمال ظاهرها وهيبة داخلها هيبة تبعث الى النفس طمأنينة الاسلام للحياة ولما بعد الحياة • لكن أمر شلى لم يقف عند حد الاعجاب بجمال كنيسة ميلانو وهيبتها ، بل ان نفسه التى كانت جموحا ثائرة على كل شىء قد وجدت فى آلام الحياة وصدماتها المتوالية ما هد من ثورتها وما أراها ضعف الانسان وعجزه التام أمام الوجود ، فعاد الى نوع من الايمان بعظمة الوجود ممثلا فى الكنائس والبيع وبيوت الله جميعا ، وجعل يرى فيه ملجأ يجتمى به الانسان من ضعفه بل يستريح فيه الى هذا الضعف ويطمئن له •

ومن ميلانو كتب شلى الى بيرون فى شأن اللجرا منبئا اياه بوجود أمها معهم • ورد عليه بيرون معلنا ، فى صراحة وقحة ، أنه لن يرى لجين وجها ولن يسمح أن تعرف اليه طريقا • ورأى شلى أن لا وسيلة للتخفيف ولو بعض الشىء من حدة صاحبه الا أن يذهب اليه فى البندقية • وغادر مارى وابنيهما وذهب مستصحبا جين التى ألحت فى السفر رجاء أن ترى ابنتها ولو خلسة ومن غير أن يعلم بيرون بوجودها • وتقابل الشاعران وتحادثا فى الأمر حديثا انتهى بيرون معه الى السماح بأن تقيم الطفلة مع أمها وشلى فى دار له بناحية « است » شهرين كاملين على ألا يكون لجين بعدهما مطلب عنده أو رجاء فيه • وأعجب شلى بالمدينة السابحة غرقى فى لجة الادرياتيك وبجزرها وكنائسها وبهوائها العطر بأريج الحب المتغنى والها فترات من الليل بأناشيده ، الذاهب

فى المتاع به الى حـدود الاستغفار عنه باقامة الكنائس الكثيرة عليها تسع ذنوب أهل المدينة جميعا وعلى احداها تكون أقرب من الأخرى الى دعاء مستجاب .

ورأى بعد الذى عرضه بيرون وبعد ذهابه وجـين وابنتها الى است أن المكاتبة بينه وبين مارى أصبحت لا تكفى فدعاها لتقيم معهما . ومن هناك عرفت مارى البندقية وتعلقت بها وبرمال الليدو ومصيفها . على انها ازدادت من بعد بهذه الرمال تعلقا أن خلفت فيها ذكرى فاجعة هى الأولى فى حياتها . فان شهرى «است» ما كادا يقاربان التمام ليعود شلى ورهطه الى ميلانو حتى كانت ابنته كلارا قد مرضت . وبرغم ما بذلت أمها من عناية بها ظل المرض متابعا سيره حتى رأوا ضرورة الذهاب الى البندقية لاستشارة طبيب رجوا أن يكون أكثر من طبيب « است » حذقا ومهارة . لكنهم ما لبثوا أن وصلوا هناك حتى كانت الفتاة فى آخر لحظاتها وحتى أسلمت روحها البريئة الطفلة قبل أن يحاول طبيبها الحيلولة بينها وبين بارئها . وذهب شـلى وذهبت مارى يحملان الجسم الصغير الى الليدو فدفناه فى رماله المختلطة صفرتها البهيجة بزرقة الموج المحيطة بها والدائمة الصفو برغم ما تحوى من أجداث ورموس يخلع عليها جلالها جمالا .

وجرحت أمومة مارى جرحها الأول وعرف الحزن الى قلبها السـبيل . لكنها سرعان ما تعزت وظهرت بمظهر القوى الذى لا يتزعزع حين تمر به أعاصير القدر . وكان مظهرها هذا بعض تعاليم أبيها . فنحن فى الحياة نؤدى للحياة واجبها بالبر بالانسان والعطف عليه ، وبتخليد النوع والقيام على تربيته ، وبنشر العرفان

والنور والعمل لتتلىء بها القلوب جميعا . وبالجهاد فى سبيل الحرية كى تتمتع بها البشرية كلها . وما أحسنا أداء هذا الواجب فمن حقنا أن نكون سعداء أيا كانت النتيجة التى يسفر عنها عملنا . وكل شر لا سلطان لنا عليه ولا قوة لنا فى دفعه لا موضع للأسى من أجله ، وتكل الوالد ولده بعض مالا سلطان لنا عليه من أعاصير القدر ، فليكن موقفنا منه موقف اباء وكرامة لا موقف ضعف وحزن . ليكن موقفنا منه موقفنا من خصم يناوئنا ليبتز مالنا ، أفترانا اذا ابتزه فأتلفه خاضعين له متخاذلين أمامه ؟ أم أنا على العكس من ذلك نزداد أمامه كبرا وأنفة ؟ كذلك ظهرت مارى أنوفا لم يعرف الهم ولا عرفت الدموع الى عينها ولا الى قلبها سبيلا . ولعل هذه التعاليم لم تكن وحدها مصدر شجاعتها ومبعث قوتها . فهذا ولدها وليم ما يزال فى أحضانها فلها فيه عزاء . وهاهى ذى ما تزال ، كما لا يزال شلى ، فى مقتبل العمر وقوة الشباب ، فما يزال لهما فى المستقبل وأبنائه وبناته وسعادته رجاء . وكلارا التى فقدت كانت ما تزال بعد طفلة يعد عمرها بالشهور ، فلا موضع للأسى عليها حتى عند أشد الناس تخاذلا أمام الحزن الا بمقدار .

فأما شلى فقد احتمل موت طفلته فى سكينة ، ثم احتمل نفسه وأهله وسافر واياهم من البندقية . وكان يشعر بأن المقام فى شمال ايطاليا ، وبخاصة عند مقدم الشتاء ، ليس مما يبعث الى نفسه السكينة والى صدره دوام ما يرجو له من عافية وبرء ، فساروا منحدرين جنوبا حتى وصلوا الى روما حيث زار شلى من آثار المدينة الخالدة مازاده قدرا لشعر قرجيل ولشعر دانت . وبعد اقامة قصيرة بها قصدوا الى نابولى . وهناك على شاطىء خليجها الساحر

البديع ألقى شلى عصا تسياره آملا أن يجد فيها الطمأنينة التى تيسر له الانخراط فى خيالاته وتأملاته وتتيح له أن يتم قصيدته (بروموتيه الطليق) ينادى فيها كما نادى فى قصيدة (الملكة ماب) بمبادىء الحرية والفضيلة ، ويضع فيها الانسان بازاء قوى الطبيعة وما وراء الطبيعة وقد قيدته كلها بقيودها فاذا هو يحاول من طريق ارادته ومن طريق حرية فكره أن يحطم هذه القيود وأن يتغلب على هذه القوى وأن يقف منها جميعا موقف المتحكم فيها المسير لها ، ثم اذا محاولته تنتهى به الى الفوز على القوى جميعا بفضيلة صدق العزيمة والايمان بالحرية وتقديس الحياة والجمال فيها وبالحب الطاهر الذى لا يعرف الأثرة ، وانما يشترك فيه الانسان وسائر ما فى الكون اجلالا وتقديسا لما أبدعت الحياة فى الكون من جمال وجلال . وهو يضع قصيدته هذه فى صورة الرواية التمثيلية جاعلا أشخاصها آلهة الأولمب وعلى رأسهم جوبتر ومن حولهم الأرض والمحيط وعذاراه والكون وأرواحه والكواكب وأفلاكها والوقت وانسيابه ، و (بروموتيه) بازاء ذلك كله يجاهده وينتصر عليه . وهو هنا يخالف الأسطورة القديمة التى تجعل هذا البطل وقد كبلته الآلهة وألزمته قيده بسبب محاولته مناجزتها والتغلب عليها بالعقل والحيلة . وان كثيرين من النقاد ليذهبون الى تفضيل هذه القصيدة من قصائد شلى على كل ما سواها ويعتبرونها الدرة من شعره . فأما آخرون فيذهبون الى تفضيل رواية (سنسى) اذ يرتفعون بها الى مقام روايات شكسبير . على أن (بروموتيه) قد نسجت على غير طراز (سنسى) . فبينا هذه الأخيرة ، على ما سترى ، تعبر

عن حب آثم يقع فى الحياة بين أب وابنته اذا بتلك تتخذ من الكائنات كلها ومن الوجود وما فيه بعض مسرحها • وهى فى هذا قد سارت على طراز قصيدة ملتون (الفردوس المفقود) وان اختلفت عنها قوة بأن ارتفعت عليها فى بعض المواضع ولم تصل الى رفعتها فى مواضع أخرى •

ولم يطل بشلى المقام فى نابولى • وكأنما كانت يد القدر التى قست به حين مقامه على أرض وطنه فجعلته لا يطيل المكث فوقها الا ليعود الى الارتحال عنها محملا هموما وآلاما ماتزال لم يهدأ ثائرها عليه برغم ما كان يبدع فى الشعر من آيات ليست القصائد الكبرى الا بعضها • فلقد مرض ولده وليم أثناء كانوا فى طريقهم عائدين الى روما • وخيل الى مارى أن الأمر يسير وأن القدر لن يفجعها فجيعتين متواليتين ولن يسلبها هناءة الأمومة وهى ؛ بعد حب الصبا ؛ كل ما للمرأة فى الحياة من عزاء • وعاد الطبيب الطفل فنصح اليهم أن ينتقلوا به شمالا • لكنهم لم يكادوا يتهيأون للرحيل حتى أصابت الطفل نوبة من «الدوسنطاريا» ألزمتهم المكث الى جانبه وبقى شلى ستين ساعة ممسكا بيد طفله خائفا أن يفر الطفل منه الى غيابات الأبد • ذلك بأنه كان طفلا ذكيا عطوفا رقيقا ؛ وكان جميل الصورة الى حد سحر النسوة الايطاليات بزرقة العينين زرقة جذابة وبشعره الذهبى المتموج تموج الحرير الناعم نعومته • ثم انه كان قد أصبح وحيد مارى بعد موت أخته كلارا ؛ فالفجيعة فيه تحيى من قلبها الفجيعة الأولى وتسدل على وجهها الضحوك وعلى ثغرها العذب الابتسام سحابة كآبة وهم يصيب شلى منهما حظ غير قليل • وكان لشلى فى القدر رجاء التصرف

بحكمته ازاء طفل لم يقترف ذنبا يجزى من أجله بالموت بله المرض وآلامه وتباريحه • لكن المرض والموت وكل ما يصيبنا فى هذا العالم من خير وشر ليس فى نظر القدر جزاء عمل من أعمالنا ، ولكنه لوح كتابنا لا مفر لنا من الاذعان له والسير فى خطواته • لذلك لم يعبأ بما كان مرجوا عند شلى ومات الطفل ودفن فى مقابر الانكليز بروما ، هذه المقابر التى أعجب بها شلى وتمنى لو يدفن فيها ، ولم يكن يومئذ يعلم أن مابقى من رفاته سيرقد هناك الى جانب جثمان طفله •

مات وليم فانهارت عند مارى كل تعاليم أبيها وأسلمت للألم نفسها ولم تطق للوجود جلادا • سكب الهم ظلمته فى قلبها واتشح الوجود كله بالسواد أمام بصرها ورسم الحزن على ثغرها وفى نظرتها صورة اليأس والبؤس وشرد لبها الى قفار الانتحار ، وصورت لنفسها خاتمة أختها فانى املاى • وعبثا حاول شلى تعزيتها بالترويح عنها بأن انتقل بها الى الريف من روما وأسكنها قصرا جميلا يحيط به الزهر والشجر • وما بهجة الزهر وخضرة الشجر أمام قلب كسير وبصر حزين ؟! انها كلها تنقلب سوادا وتزيده على همه هما وأسى • بل تصبح ضحكات الزهر بعض سخرية القدر ، وابتسامة الخضرة شماتة بنا فى مصابنا • وعبثا حاول أبوها لما علم عمق حزنها أن يردها الى صوابها والى تعاليمه • فالصواب والتعاليم والمنطق والعقل أوهام وصور ما تلبث أن تطير وتتلاشى اذا هى ارتطمت بقسوة الواقع • وأى واقع أشد قسوة من الموت ، بل من الثكل ، ثكل الأم لوحيدها ولأمومتها ؟ وشلى وجه وحنانه أصبح هو الآخر مملولا ، ثم نسى كما نسى

غيره أن لم يبق من الوجود أمام مارى الا حزنها مجسما فى ذلك القبر الذى أوت اليه رفات وليم . فاذا ناداها شلى قائلا : « أين ذهبت ياعزيزتى العزيزة مارى تاركة اياى وحيدا فى هذا العالم القفر ؟ ان صورتك الساحرة ما تزال هنا الى جانبى ، لكنك أنت قد فررت عن طريق الوحدة المؤدى الى صوامع الحزن المظلم » . اذا ناداها شلى هذا النداء لم تزد على أن تمعن فى التماس صوامع الحزن تاركة اياه يبحث عن عزائه فى خير دواء لكل ألم وخير بلسم لأبلغ جرح : فى العمل المتصل لأداء ما ألقت عليه الأقدار رسالته كى يشدو بها الى العالم أنغاما سماوية . وأعانته سماء ايطاليا الصفو على متابعة تفكيراته وشدوه . على أن القدر الذى قسا كل هذه القسوة بمارى لم يلبث أن دس اليها من عنده بلسم عزاء . فقد حملت وأحست فى أحشائها روح الأمومة من جديد ، لكنها كانت فى خشية من معابثة القدر فظلت على عبوسها وان زالت سحابة الهم التى كانت تظلها مما جعلها تنظر للحياة مرة أخرى نظرة رجاء . ولما اقترب موعد وضعها ارتحل بها شلى الى فلورنسا لتكون فى رعاية طبيب صالح . ثم ان فى جو فلورنسا الجميل ما يضاعف الرجاء لمن لديه ولو قبس من رجاء ، فيها أجمل ما فى ايطاليا من الآثار ، ويضوع ريحها باسماء دانتى ، وسافانارولا ، وجيوتو ، ودوناتلو . لذلك كانت للزوجين خير موئل . فيها وجد شلى خير ما يلهم شاعريته التواقة للجمال تلتمسه فى كل مظاهر الفن والطبيعة ، وفيها وجدت مارى مزيدا فى رجائها . حتى اذا وضعت وألفت نفسها أما من جديد فى ذراعيها طفل حملته أحشاؤها عاودت ثغرها أول ابتسامة من يوم مات وليم ، ودعت الوليد برسى فلورنس شلى ،

اعترافا بفضل زوجها فى تقويتها على اجتياز محنتها ، وبفضل فلورنسا التى عادت اليها فيها أمومتها وحياتها ورجاؤها .

ولما جاء الشتاء وقرس البرد فى المدينة « الجميلة » نصح الطبيب الى شلى بالسفر الى بيزا ، فذهب بأهله اليها وأقاموا بها . وهنا تألفت حول شلى جماعة يعيش كل منهم عيش العزلة ، فلما وجدوا هذا الدائم الترحال استقر بينهم أحاطو به وانضم اليهم قسيس لقبه أهل البلد بشيطان بيزا واسمه الأستاذ المبجل باكشيانى . وكان قسيسا قليل الدين واستاذا لا يعلم الناس شيئا وزير نساء ومحبا خدمة معارفه . وكل من يمر ببيزا كان يصبح من معارفه . وقد قص هذا الشيطان على شلى قصة استدعت كل التفاته . ذلك أن للكونت فقيانى ، أحد كبار أعيان بيزا ، فتاتين من زواج أول ، وأنه لما تزوج ثانية بعد وفاة زوجه الأولى ذهب بفتاتيه الى الدير ، أن كانت زوجه شديدة الغيرة منهما لفرط جمالهما . وكان جمال كبراهما (امليا) رائعا روعة جمال الملائكة ، كما كان ذكاؤها حادا وخيالها متوقدا بما يبعث الى كل نفس أشد الاعجاب بها والاشفاق عليها . وكان قصد أبيها من الذهاب بها وبأختها الدير أن يقيما فيه حتى يتزوجهما من شاء من غير أن يمهره الأب عنهما شيئا . فلما سمع شلى بالقصة هاجت فى نفسه كل عواطفه القديمة . أليس هو يريد الكمال مجسما فى انثى لها جمال المرأة وعقل الرجل ؟ وهـذا هو قد ضل تقديره الكمال فى هاريت جروف وهاريت وستبروك . وها هى ذى مارى جدوين وان كانت ما تزال من خير النسوة اللواتى عرف الا أنها أصبحت أمامه جسما محسوسا ذا حدود وأبعاد وذكاء متجليا له كل ما فيه من حكمة وشعر ، فلم يبق اذن

فيها المجهول الذى يبحث هو دائبا فى الكشف عنه والوصول اليه ! فلئن اذن ما عسى أن تكون اميليا فيفيانى هذه من صور الكمال وما عسى أن تلهمه من رائع الشعر والحكمة .

ولمح القسيس الشيطان هذه النوازع فى نفس شلى فعرض عليه أن يصحبه الى الدير . وما لبثت الفتاة أن دخلت عليهما المنظرة حتى سحر شلى وذهب به : قوام رخص فى لدونة واعتدال ، تخلع عليه ثياب الدير البسيط زينة وانسجاما وتزيد بهاء ما فيه من جمال فى كل انثناء وتنوء . ومشية هى للعين أنغام تموج فى النفس والخيال فتهزهما وتبهرهما . وشعر فاحم السواد ملقى على اكتافها ليزيد وجهها البديع القسمات وضوحا وبهرا . وعيون دعجاء تفيض نظراتها حبا شهيا فيه قوة تلتهم من تقع عليه التهاما . وجبين مصقول ، وأنف أقنى ، وثغر عذب وشفاه تحدث عن فيض الرغبة . والى هذه الأنوثة القوية الجذابة بريق ذكاء يبدو بصيصه من حدق عيونها السوداء قويا ملتهبا . وألفت الفتاة ساعة دخولها المنظرة عصفورا فى قفص ، فتوجهت اليه بهذه الكلمات : « أيها الصغير المسكين ! . انك لتموت اكتئابا ! فما أشد اشفاقى عليك ! . ألا كم تتألم حين تسمع أسراب أمثالك تناديك ثم تطير مع الرياح من غيرك الى بلاد مجهولة ! أنت مثلى محتوم عليك أن تقضى هنا فى سواد حظك . أواه ! لو كنت أستطيع انقاذك ! » . وانطلقت مرتجلة مثل هذه العبارات بصوت عذب ساحر تزيده اللغة الايطالية بموسيقاها سحرا وعذوبة . وزادت أنشودتها للطائر الحبيس بهر شلى فاستأذنها أن يعود اليها وأن يستصحب زوجته واختها ، فرضيت طيبة النفس .

وتزاوروا وتكاتبوا وأبدت مارى اعجابها بجمال امليا وتقدير شلى اياه على انه الجمال الاسمى . أما شلى فانطلق من فوره يضع قصيدته (ابسشديون) يصف فيها الجمال والحب ويدعو فيها املى لتذهب واياه الى قصر قديم فى جزيرة أبدعها خياله بين جزر الادرياتيك ليعيشا هناك وليسبحا بين جمال تلك الجزيرة وأشجارها وأنهارها فى عزلة لا ينغصها عليهم أحد من الانس . وانك لتقرأ القصيدة وتبلغ أبياتها أربعة وستمائة بيت فلا ترى فيها أكثر من هذا الذى ذكرنا . لكنك تراه اثيريا يطير بك فى عالم الجمال وينسيك نفسك بموسيقاه وحلاوة صوره وبديع خياله وينساب الى روحك عذبا سلسبيلا فلا تزداد الا تعلقا به وتقديرا اياه . وفى ختام القصيدة يقول : « اذهبى أيتها الأبيات الضعيفة فاسجدى عند قدمى سيدتك وقولى : اننى سيدة عبدك فمرى أمرك فينا وفيه . ثم تنادين مع اخواتكن من سائر شعرى واسجعن متغنيات : عذب فى الحب حتى آلمه . لكن جزاءه فى هذا العالم قدسى لأنه ان لم ينلنا فى الحياة تبعنا الى ما وراء قبرنا . وأنت لا ريب ستحيين فى حين أكون أنا قد أويت الى هناك . فاسرعى فوق قلوب العباد حتى تقابلى مارينا وفآنا وبريموس وسائر صواحبك ، ثم أهيبى بهن أن يحب بعضهن بعضا وأن يبارك بعضهن بعضا ، ودعى فيما وراءك قطيع الخاطئين الطاعنين على غيرهم بخطاياهم وتعالى فكونى ضيفى — فانما أنا ضيف الحب » .

وقبل أن يتم قصيدته ، تزوجت اميليا من غنى اسمه بيوندى قبل أن يعقد عليها من غير أن يمهرها أبوها . فلما علم الشاعر بأمرها اسقط فى يده ولم يطق اتمام قصيدته . فهاهى ذى رمز الحب فى طهارته

قد فعلت فعلة ابنة عمه هاريت جروف وفعلة النساء جميعا ممن عرف . هاهى ذى سقطت الى مستوى القطيع تاركة اياه يعض البنان ندما على خطئه فى أمرها ويصب عليها اللعنة ان أضاعت عليه وحيه والهامه .

وفيما كان شلى فى هيامه باميليا كان بيرون يتخطى خليلة الى خليلة حتى انتهى الى أجمل نسوة البندقية وتدعى جيوكشولا . وكانت من عائلة نبيلة ومتزوجة رجلا نبيلا . لكن صلة المرأة بخليل لم تكن فى البندقية يومئذ أمرا ادا ، حتى فى نظر زوجها . على أن هذه السيدة اضطرت للسفر مع هذا الزوج الى رافنا ومن هناك دعت بيرون ليترك البندقية ويقيم عندها . فلما تلكأ بعثت اليه تخبره بأنها مريضة فطار اليها وأقام الى جانبها . وكما انتقل هو من البندقية فقد نقل ابنته اللجرا الى بولونيا . فلما علمت جين كليرمونى بأمر ابنتها بعثت الى بيرون تستعطفه أن يبعث بها اليها . فرد عليها ردا غليظا يقول لها فيه : ان التربية فى بيت شلى على أساس النباتية فى الحياة المادية والالحاد فى الحياة الروحية مما لا تطمئن له نفسه ، ورفض أن يسلم البنت لها . فجن جنونها وبعثت اليه بخطابات قاسية اعتذر له عنها شلى فى خطاب بعث به اليه يقول فيه : ان جين أم ، وانه وان لم يطلع على ما تكتب لوالد ابنتها الا انه يرجوه أن ينظر اليها بعين الرحمة والمغفرة . لكن بيرون رأى فى هذا كله ما أغضبه ، فأراد أن ينتقم لنفسه من شلى . وكان قد وصله خطاب من قنصل انكلترا فى البندقية ، يقول له فيه : ان الناس يتهمون شلى بمعاشرة جين ، وان مربية كانت فى خدمة شلى تذيع أن جين حملت منه فأجهضها فى نابولى حين كانت

زوجه فى روما . وتنفيذا لانتقامه بعث بيرون يستدعى شلى الى رافنا « لامور خطيرة » . فلما كان عنده أطلعه على خطاب القنصل مما هاج ثائرة شلى وجعله يكتب الى زوجه يطلب اليها أن تكذب ما تذيع خادمهم الخؤون . وأظهر بيرون اقتناعه بما كتبت مارى وان لم يقم بأى مجهود لدى القنصل فى البندقية يبدد به ما علق بذهنه من أكاذيب .

وزار شلى اللجرا فى الدير الذى بعث بها اليه أبوها ، فى بانيو كافالو ، فألفاها كبرت ولكن النحول بدا عليها . ومع نحولها بدت وسط الأطفال قريناتها فى جمال جذاب يدل على أنها أرق منهن وأرقى منبتا . غير أن حياة الدير كانت بحيث تعرض صحتها بل تعرض حياتها للخطر .

وكانت خليلة بيرون معتزمة السفر الى سويسرا . فطلب بيرون الى صديقه أن يكتب اليها ، ولو لم تسبق له بها معرفة ، ليقنعها بالعدول عن فكرتها والذهاب الى فلورنسا أو الى بيزا . وفاضت السعادة بشلى حين علم أنها قبلت الذهاب الى بيزا للمقام على مقربة منهم . ولم يبد بيرون اعتراضا أن كانت جين قد تركت تلك المدينة الى فلورنسا حيث قامت بأمر التعليم فى احدى مدارسها . ولم يلبث اللورد أن نزل المدينة الصغيرة التى يقيم فيها شلى حتى أبدت جمعيتها كل الاعجاب به ، فصار قصره مقصد المتأنقين فى حين بقى شلى الرسول الروحى لأهل المدينة جميعا . وكانت حياة بيرون حياة ترف لم يطقه شلى . فقد كان يسهر الليل كله ثم ينام فى الصباح الى ما بعد الظهر ويذهب من بعد ذلك للصيد ويعود الى سهره ، ثم الى مكتبه ليدبج قصائده التى استوقفت أنظار

انكلترا كلها فكانت تلتهمها التهاما . وكان حقا على شلى أن يحتمل هذه الحيـاة زمنا كان يعتبره صاحبه ضيفا عليه فى بيزا . لكنه ما لبث أن رأى مارى تريد الانخراط فى سلك هذه الجماعة المترفة حتى صدف عنها وعاد الى حياته البسيطة الأولى . ووجد فى أسرة انكليزية مقيمة ببيزا ما يسر له الابتعاد عن بيرون وجماعته . تلك أسرة وليمز وزوجه جين . وكانت جين وليمز رشيقة رقيقة هادئة النفس موسيقية الصوت يريح وجودها أعصاب من يتصل بها . وكان صوتها حلو الغناء مما أتاح لشلى أن يذهب وهو معها فى أحلامه الشعرية وكأنه يسير وسط حديقة غناء ، وزاده اعجابا بجين وليمز ما دأبت عليه مارى من الشكوى من أنها لا تجد من أسباب المسرة فى الحياة ما يجد غيرها .

وكان لأسرة وليمز صديق بحار من الأشقياء يدعى ترلونى ، وقد دعوه الى بيزا ، فاشترط أن يكونوا سبب تعارف بينه وبين شلى ، وبينه وبين بيرون بنوع خاص . فوعده وليمز بهذا ولم يكن عليه عسيرا . وجاء ترلونى فانضم الى عصبتهم . ولما ربطت المعرفة بينه وبين شلى برباط وثيق طلب اليه أن يبنى له ولوليمز يختا يشتركان فيه ، واختار لنفسه ولوليمز بيتا على الشاطىء قريبا من بيزا فأقاما فيه ومعهما مارى وجين ، وجعل شلى من يخته مركبا لرياضته وخيالاته وأحلامه ، وشعر بالسعادة تفيض عنه وبآلهة الشعر تواتيه بالهامها من كل جانب .

والحق أن آلهة الشعر لم تضن على شلى بالهامها يوما من الأيام . لكنها كانت فى هذه الفترة وخلال الأربع السنوات والنصف التى أقامها فى ايطاليا أشد بالهامها فيضا ، حتى ليدهش الانسان حين

يرجع الى ديوانه متى استطاع أن يكتب هذا الشعر الملائكى كله ، ثم ليزداد دهشة اذا رجع الى رسائله والى نثره فرآها لا تقل عن الهامه الشعرى غزارة فيض ولا قوة عبارة ولا ملكا لعالم الجمال وكل ما حوى . ولو أنك أردت أن تحصى ما كتب من شعر فى هذه الآونة وحدها لبلغ عشرات الألوف من الأبيات بل مئات الألوف ! وليس يقف ما كتب من هذا عند قصائده الكبرى كقصيدة (بروموتيه) و (سنسى) و (ساحرة الأطلس) و (ابيسشديون) و (قناع الفوضى) و (أدونا يبس) و (هلاس) وغيرها وغيرها . بل ان له لمقطوعات يقر مترجموه جميعا بأنها أبقى الشعر الانسانى كله على الدهر . وهذه المقطوعات التى يتحدث بها مرة الى قبرة ، وأخرى عن سحابة ، وغيرها عن شجرة حساسة ، وأخرى الى النيل وعشرات ومئات غيرها ، هى لاريب خير ما تغنى به شلى معبرا به عن صلته بمملكة الجمال فى الوجود . ولقد تغنى فى هذه المقطوعات كما تغنى فى مواضع كثيرة من قصائده الكبرى ؛ فخلع على كل ما تغنى به حياة لم تكن لتحسبها له ، فاذا بك وقد قرأت شلى محسا بها لامسا اياها معترفا بأنك أنت الذى كنت عاجزا عن رؤيتها بحسك واكتناهها بقلبك . وليس شعره وحده هو الخالق حياة جديدة فى الوجود . بل ان لنثره من هذه القوة ما لشعره ، وان كانت موسيقى شعر شلى مما يزيد فى قوة خلقه حياة وقوة .

ولشعر شلى جوانب شتى لمح القارىء بعضها فيما قدمنا له من ترجمته . فثم جانب حياته هو وتغنيه بما كان يرجوه فيها . و (روح الوحدة) و (أبيسشديون) وكثير من مقطوعاته تعبر عن هذا الجانب خير تعبير . تترنم القصيدة الأولى ببأس الشاعر وآلامه

وركوبه زورق الحياة على لجة الوجود ملتمسا فى العدم راحة من آلامه . واجدا فى خيالات الحب لهـذه الاعرابية التى مرت به ثم تبعه طيفها عزاء نفسه عن بعض هذه الآلام حتى تسكن الى الموت سكونها الأخير . وقصيدته الثانية هى قصيدة الجمـال والحب مجسمين فى امليا فيـافانى . أما الكثير من مقطوعاته فيتضوع بشذا الحب والجمال ويترنم بموسيقاهما على صورة لم تعرف فى شعر غير شعر شلى . فلقد كان من عباد جمال المرأة والذين يجدون فيه تمثال الكمال الانسانى مجسما . وكأنما كان جسمه يصبو الى هذه الأجسـام التى تتمثل فيها روح الانسانية بكل نوازعها معنى الجمال الانسانى . لكنه كان يسبح من عبادته هذا الجمال فى خيال قسرته عليه فضيلته وألزمتـه اياه آراؤه ومبادئه . لذلك لم يكن يدع لصبوة جسمه أن تنزلق مع تيار الغريزة باحثة عن الاتصال بمن صبا اليه ، بل كان يدع هذا الاتصال لعقله ولخياله ولشعره يصوغ من الاتصال آى الحكمة وأهازيج الجمال . وهو هنا يختلف عن بيرون وعن كثيرين من الشعراء الذين يجـدون فى صبوة الجسم الى الجسم شفاء لغريزة تخليد النوع كل ما يسعى اليه الحب بل كل ما يحرك فى النفس هذه العاطفة . وهذا المعنى الذى تراه صريحا جليا فى شعر شلى هو الذى كان ينتهى باليأس الى نفوس كل من أحببنه من النسوة ، وبما يشبه اليأس الى نفس مارى أكثرهن ذكاء وأسماهن حكمة . فالمرأة التى ترى فى فضيلة شلى معنى من معانى الرواقية والزهد فى الحياة والرغبة عنها تشعر بنقص فى الحياة على حين خلقتها الطبيعة لتزيد فيها وتستزيد منها .

على أن جمال المرأة وان زان كل جمال فى الوجود وتوجه فليس

مافى الوجود سواه من جمال أقل الهاما لنفس الشاعر وتحدثا الى قلبه • بل ان كثيرا من جمال الوجود ليخلع على المرأة جمالا وزينة بمقدار ما تزينه هى وتجمله • ولئن كنت ترى هذين اللونين من الجمال مقترنين أكثر الأحايين فى نفس أكثر الشعراء ، الا أن لجمال الوجود مكانة خاصة من نفس شلى تكاد تجعل الجمال لذاته آية ايمانه فى الحياة • وهو فى هذا أصدق من كثيرين غيره نظرة وأدق حسا • وهو لهذا كان يريد أن يفصل بين المرأة كمثال للجمال والمرأة كمخلدة للنوع وكان يبحث فيها عن الجمال فى مثله الأعلى ، وكان لذلك لا يرى لجمال الجسد قيمة مالم يصحبه روح جميل هو الآخر •

وفيما سوى هذا الجانب من جوانب شعر شلى كانت المدينة الفاضلة غاية قصده من أكثر قصائده • المدينة الفاضلة بما فيها من اخاء وتسامح وحرية وتبادل محبة • المدينة الفاضلة المنزهة عن دنيا الشهوات ، السامية الى مكانة هى وحدها الجديرة بالانسانية المهذبة • و (الملكة ماب) و (بروموتيه) و (سنسى) نفسها اندفاعات صادقة فى الدعوة الى هذه الغاية العليا وحرب شعواء على الجمود وعلى التعصب وعلى ما يؤدى اليه الجمود والتعصب من تحكم الشهوات الدنيا فى الروح الانسانية تحكما ينتهى بها الى فسادها وذلها • ولعل هذه الصورة التى صورها الشاعر من آثار الجمود والتحكم أشد ما تكون وضوحا فى (سنسى) منها فى أية قصيدة أو رواية أخرى • فقصة هـذه الرواية التى وضعها الكثيرون من النقـاد والكتاب فى صف روايات شكسبير ، أن الكونت سنسى بلغ من كراهية ابنته وابنه من زوجة متوفاة ، أن حدثته نفسه بالفتك بعفاف ابنته بياتريس • وشعرت الفتاة بالكريهة

التى يريدها أبوها عليها فدبرت مع أخيها وزوج أمها مؤامرة للتخلص من حياة ظالميهم جميعا . وانما لجأوا الى الائتمار بحياته بعد أن لجأوا الى البابا والى كبراء روما فلم يجدوا منهم منصفا . وكشف الأب المؤامرة فشكاهم الى قداسة البابا فأمر باعدامهم وفاقا لارادة الكونت الذى اشترى من القداسة العليا العفو عن كثير من جرائمه بثمن زاد على مائة ألف من الجنيهات . ولو أن العدل أخذ مجراه فى هذه المؤامرة لكان (سنسى) هو الخليق بأن يجزى أشد الجزاء . لكن فى اعدامه اعداما للأموال الطائلة التى كان يغدقهـا على الخزانة البابوية ! فليعدم الفقراء ، وان كانوا أنصار الفضيلة ، ولتبق الجماعة على حياة الرذيلة ما دامت تفيـد منها . ثم لتثر الفضيلة على لسان شلى فى أشعار هـذه الرواية الخالدة ثورة تدك عرش الظلم وتهز قوائم الظالمين .

وهو هذا الدفاع عن الحرية وعن الفضيلة ومحاولة الارتفاع بجمال المرأة ليكون مثالا لهما هو الذى كان يفرق بين شلى وبيرون ويجعل من كل واحد ند صاحبه . وطبيعى أن كان اقبال الجمهور يومئذ على شعر بيرون . فالجمهور أسير الشهوات يلتمسها فى واقع الحياة . ولئن صح أن كانت ألسنة الخلق أقلام الحق فلبيرون أن يزهى على صاحبه وأن ينظر اليه مشفقا عليه . لكنه كان فى الخيال كما كان فى الواقع يستشعر الغيرة منه ، وكأنما كان يجرى به خياله الى لجج المستقبل يلتمسها فيتبين خلالها ما أعده لشلى من عظمة وخلد ينافسان خلده وعظمته ويدعو الكثيرين لتفضيله عليه .

وكان حب شلى للجمال ودفاعه عن الحرية أثرا من آثار طيبة قلبه وحبه الناس وبره بأصدقائه . وقد عرف أثناء مقامه بكازامانى

بالقرب من بيزا أن صديقه لى هنت فى عوز فدعاه الى ايطاليـا ، واتفق ولورد بيرون أن يصدر هنت جريدة فى ايطاليا يكون لها امتياز السبق الى نشر قصائد بيرون • وفيما كان هنت فى طريقه الى بلاد الشمس والضياء ، كان شلى سعيدا ببخته سعيدا بزورق صغير صنع له كى ينقله وصاحبه وليمز من اليخت الى بيته أن كانت مياه البحر لا تسمح برسو اليخت على الشاطىء • وكان كثيرا ما يستلقى أثناء رحلاته على الماء تاركا السفين يلعب به الموج ذاهبا هو فى تيهاء تأملاته وأحلامه • فاذا عاد الى داره التمس فى مجاوراته مكانا منعزلا بين الغياض والشجر وقضى نهاره يقرض من شعره الموسيقى الساحر ما يهبه للحياة وللحرية تارة ولزوجه مارى طورا ولجين وليمز التى أصبحت ربة شعره فى هذه الفترة الأخيرة أكثر الأحايين • وكثيرا ما كان ينقضى النهار وهو فى عمله عند جذع شجرة اتخذها وسط الغابة مكتبا ، ناسيا أثناء ذلك طعامه وشرابه ، مكبا على خياله وشعره ، حتى لكانت زوجه وكان صاحبـه ترلونى يذهبان اليه ينتشلان من عالمه الجميـل السعيد ويردانه الى الحياة التى يعيش فيها على طريقته من التقشف والزهد •

ووصل لى هنت ، فذهب شلى وقابله فى ليفورنو ، ومن هناك ذهب به الى بيرون فى بيزا ليتموا الاتفاق فى شأن الجريدة التى تحدث شلى لصاحبه الشاعر الكبير عنها • ومع ما بعث به فقر هنت وسوء حال أولاده من التقزز الى نفس بيرون ، فقد ظل به شلى حتى انتهى بالزامه أن يقوم بعمل من أعمال البر لرجل أخلص للأدب وللشعر حياته • فلما آن له أن يرتحل عائدا الى بيته فوق سفينته عصفت ريح جعلت السفرة مخوفة ، حتى لقد تردد ترلونى

الذى قضى فوق لج البحر حياته فى أن ينصح لهما بالسفر . لكن شلى كان اذا اعتزم فعل . فاصطحب صديقه وليمز وغلاما معهما وأقلعوا يوم الاثنين الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ وانتظرتهما زوجاهما فى ذلك اليوم الذى انقضى من غير أن تقفا لهما على خبر . وانقضى الثلاثاء والأربعاء بعده فجن جنونهما وطاش صوابهما وذهبتا الى ليفورنو باحثتين عنهما . وعلم ترلونى بحال الزوجتين فأيقن أن صاحبيه هلكا فى زورقهما . وأخذ نفسه بالبحث على شاطىء البحر ما بين ليفورنو وكازامانى حتى اذا كان الرابع عشر من أغسطس عثر الغائصون بجثة عبثت الأسماك بوجهها وان لم تخف معالمه . وألفى ترلونى فى جيب « الكاكتة » كتاب اسكيلوس فلم تبق لديه ريبة فى أنها جثة شلى . ثم لم يطل بالغائصين البحث حتى عثروا بجثة وليمز . ودفنهما ترلونى فى الرمل ثم ذهب مكتئبا حزينا الى كازامانى . وحاول أن يدخل فخانته قواه فجعل يدور حول المنزل حتى لمحته خادم ، أخبرت سيدتيها بالأمر . فما لبثتا رأتاه حتى تبدد كل وهم من رجاء بقى عندهما وحتى انهدتا الى الأرض صعقتين قضى عليهما الترمل والهم .

ولما أفاقتا ذكرت مارى ما كان يرجو زوجها أن يدفن فى مقابر الانكليز بروما . لكن نقل الجثة من بيزا الى روما غير جائز بحكم قانون البلاد الا أن تحرق الجثة وتنقل بقية التراب منها . ففى ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ ، وقف لورد بيرون والشاعر لى هنت والبحار ترلونى فوق رمال الشاطىء الايطالى على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف الى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الايطاليين ، وكلهم محدق

ببصره الى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ صب عليها وبالملح ألقى فيها ويفوح منهـا ريح اللحم الانسانى ، وكلهم واجم مخلوع القلب ذاهب فى تيهاء الهلع والذهول • وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباعا يهز نفوسهم هزا فلا يزدادون ازاءه الا وجوما وذهولا ، وتنـدى عين بعضهم بالدمع ثم تذرفه أن لا تستطيع حبسه • ويحدق ترلونى بالعظـام تحترق وباللحم تذيبه النـار ، ثم تبدأ النار بعـد ذلك تخبو رويدا رويدا تاركة وراءها حفنـة من تراب هى كل ما بقى من رفات قيثارة الشعر الانكليزى شلى • ويحمل ترلونى الحفنـة الى الأرملة البائسة مارى شـلى لتتولى ويتولى هوولى هنت معها حملهـا الى مقابر البروتستانت فى روما كى تستقر هنالك فى أرض غريبة عن ثرى الوطن ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها الى جانب رفات عزيزة محبوبة هى رفات ابنه وليم • ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية الى روما ، ولم يكن شلى قد بلغ الى يوم وفاته فى الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره ، وان كان قد خلف من شعره على الحيـاة مالا يزال فخر الشعر الانجليزى عذوبة وموسيقى تأخذان بالنفس وتملكان على المرء حسه ولبه وتبعثان الى كل ماتنشدانه وتترنمان به الحيـاة والخلد ، سـواء أكان ما تنشدانه وتترنمان به انسانا أم طيرا أم حيوانا أم جمادا أم مجرد خيال لا وجود فى الحياة له ، ذلك بأن الحياة كانت تسرى فى كل ما لامس نفس شـلى لتبقى قائمـة به قرونا ودهورا بعـد موت باعثها •